الفصل الثاني

شعر الوحدة الإسلامية في عهود الخلفاء الذين تلوا السلطان عبد الحميد

- فتور التلاحم الإسلامي
- حروب تركيا والرابطة الإسلامية

obeikandl.com

فستور التلاحم الإسلامي

بعد خلع السلطان عبد الحميد العثماني الذي كان ينادي بالوحدة الإسلامية ويدعو إليها . تولى أعضاء حزب الاتحاد والترقي السلطة في تركيا وتبنّوا العصبيات القومية التي تفرق ولا تجمع وتهدم ولا تبني .

ولم يكن للخلفاء الذين جاءوا بعد السلطان عبد الحميد إلا الاسم فقط ؛ فقد كانوا سلاطين رمزيين لا حول لهم ولا قوة ولا أمر لهم ولا نهي .

ولقد اتجه زعماء هذا الحزب بسياستهم نحو تغذية العصبية الطورانية ؛ بإحياء تاريخ الأتراك السابق على الإسلام ، وتمجيد الغزاة والفاتحين من أسلافهم الوثنيين . وذلك بعد أن كان الأتراك العثمانيون حتى منتصف القرن التاسع عشر لا يكادون يعرفون شيئاً عن ماضيهم وتاريخهم وأصلهم ونسبهم . وبعد أن كانوا بمعزل عن الوقوف على تاريخ بلادهم ومعرفة أجدادهم فقد كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية . وتاريخ أبطال الإسلام تلذهم أكثر من تلاوة تاريخ أجدادهم الوثنيين وفتوحاتهم .

ولقد تمادى حكام تركيا من الاتحاديين في خيالهم الذي كان يصور التئام الطورانيين من الترك العثمانيين والتركمان والتتر والمغول والقلنديين والمجر . وأصبحوا يرون أن هذه الأجناس أقرب إليهم من العرب ومن سائر المسلمين الذين لا ينتمون إلى العنصر الطوراني . ثم حالفوا الألمان في سبيل تحقيق ما يحلمون به من السيادة الطورانية . وذهبوا في هذا الحلف إلى أبعد مدى . فزجّوا بتركيا في حروب لا مصلحة لها فيها . على الرغم من معارضة الخليفة محمد (رشاد) الخامس [1] ولعل خير من يكشف لنا عن هذا الاتجاه مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا حيث يقول : إن الكماليين [2] ذهبوا في التعصب لطورانيتهم إلى حد العداوة للإسلام ومهاجمته باعتباره ديناً عربياً وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد ، وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب ، كأنهم يحلون تحية الذئب

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ . ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) يقول السيد رشيد رضا : « الكماليون هم الاتحاديون لا فرق بينهما في المقصد ولا في الوسائل وإنما كانوا ينسبون إلى معنى فصاروا ينسبون إلى جُثة أو شخص . وهذه التسمية تنافي ما يتبجحون به من القضاء على نفوذ الأشخاص وسلطتهم وإحلال سلطة الأمة محلها . فما تغير شيء إلا التسمية التي صارت ممقوتة عند الأمة بما جنته الجمعية عليها . » « المنار » : المجلد ٢٥ ، ص ٢٨٠ (٣٠ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ) .

محل الصلاة ، مبالغة منهم في إقامة الشعور الجنسي مقام الشعور الإسلامي [١]

واستبعدت تلك الجماعة الوحدة الإسلامية وحاربت تيار الجامعة الإسلامية ووأدت شعار السلطان عبد الحميد « يا مسلمي العالم اتحدوا » . ويقول السيد رشيد رضا بعد أن أقام سنة كاملة في الآستانة : « إن هؤلاء الزعماء (الاتحاد والترقي) كلهم من شيعة الماسون . يجتهدون في نشرها وجعل رجال الحكومة من أعضائها ، كما ينشرونها بين ضباط الجيش . وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين وتجريد السلطة من صفة الخلافة الإسلامية . وإن من لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل ، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين اليهود لخيرات البلاد [٢] ... » .

ويقول السلطان عبد الحميد عنهم في مذكراته : « لا بد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم . وقد استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن جُلَّهم من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي .

وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية »[٣] .

ويقرر أرمسترونج أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية . وأن بعض الاتحاديين كانوا منضمين للماسون ، وأن وزير مالية الاتحاديين كان يهودياً وكذلك كانت وزيرة المعارف في عهد الكماليين خالدة أديب من أصل يهودي[٤] .

وذكرت مجلة المشرق الكاثوليكية أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة هم من اليهود [٥] .

ولقد كان الإنجليز من وراء هذه الجمعية أيضاً ، فقد ذكر أحمد شفيق باشا أنه كانت في مصر مطبعة تطبع منشورات ضد السلطان عبد الحميد لجمعية تركيا الفتاة ، وأن الخديوي علم بذلك ، وسعى إلى الحصول على أوراقها السرية ، ولما أحس جماعة تركيا الفتاة بذلك بعثوا للورد كرومر ببرقية قالوا فيها : « إن في هذه المطبعة أوراقاً سياسية لو نشرت لكانت

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ ، ص ٧٦ ، ولاحظ مصدره .

(٢) المنار : المجلد ١٤ ، ص ٢٦٩ ، (٣٠ ربيع الآخر سنة ١٣٢٩ هـ) .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٨٧ .

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ ، ص ٧٩ ، ولاحظ مصدره .

(٥) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي : ص ١٧٢ .

سبباً في القضاء على حياتهم . وإن المعيَّة تبحث منذ عامين للحصول عليها إرضاء للسلطان » . ولقد لبى اللورد كرومر الطلب فأمر البوليس باقتحام المطبعة . وتكسير أختامها . وأخذ الأوراق الموجودة بها . دون أمر قانوني من السلطات المختصة [١] .

ولقد عملت تلك الجماعة ومن ورائها القوى العالمية على تضليل العالم الإسلامي . وتصوير عهد السلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد وكل ألوان الرذائل والنقائص . وزعموا أنهم دعاة حرية وعدل ومساواة . وعملت تلك الجمعية على تنفيذ رغبات المحافل الماسونية في هدم الوحدة الإسلامية . فتمزقت الأمة الإسلامية وتوالت عليها النكبات واندلعت الثورات في البقان وألبانيا . وسلخت النمسا ولايتي البوسنة والهرسك عن السلطنة مقابل ثلاثة وخمسين مليوناً من الفرنكات ذهبت إلى جيوب الماسون من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي . ونجحت بلغاريا في الانفصال . واحتلت إيطاليا ليبيا وجزر البحر المتوسط . وأخذ اليونان جزيرة كريت . ولم تحرك الجمعية ساكناً ، وكأنها جاءت لتمزيق الإمبراطورية والقضاء على معاقل الإسلام معقلاً معقلاً [٢] .

وتزعزع الوفاق العربي التركي ، وعملت القوى الأجنبية على تقوية الخلاف بين الشعبين فمدت يداً للعرب وأخرى للأتراك ، ولما عقد بعض المفكرين العرب مؤتمراً لهم في باريس قامت الحكومة الفرنسية (بلعبة مزدوجة) ففي الوقت الذي كانت تمد إحدى يديها لدعم المؤتمرين ورعايتهم . كانت تمد يدها الأخرى للاتحاديين وتعقد معهم الاتفاقات العديدة في مجالات التعاون بين البلدين ، وكان الإنجليز يتظاهرون بالموافقة على نقل الخلافة الإسلامية إلى الشريف حسين ويعدونه ويمنونه ويعملون في الخفاء بالاتفاق مع مصطفى كمال على إلغاء الخلافة الإسلامية [٣] .

هذا ولقد انقسم العرب على أنفسهم وتباينت آراؤهم نحو تركيا . فمنهم من نادى بالقومية العربية وعمل على الانفصال عن تركيا ، وفهم القومية العربية فهماً علمانياً بعيداً عن

(١) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ . ص ٣٩٤ .

(٢) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٨٧ .

(٣) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٥٠ .

الدين ، وكان جُلُّ هؤلاء من النصارى [١] العرب ، وكانوا أول من نادى بالقومية العربية [٢] .

واتجه فريق آخر ـ بعد تسلط الاتحاديين وغلوهم في العصبية الطورانية ـ في فهم القومية العربية ، ففهموها فهماً دينياً سياسياً ، ونادوا بالانفصال عن تركيا ، وأعلنوا الثورة على الأتراك ، وكان يقود هذا الفريق شريف مكة الحسين بن علي فكان يوزع المنشورات ويوجهها إلى جميع إخوانه المسلمين .

وكان يقول : إن ثورته لم تكن على الخلافة ولا على الخليفة نفسه فهو يثني على الدولة العثمانية وعلى سلاطين آل عثمان بقوله : « إن أمراء مكة المكرمة هم أول من اعترف بالدولة العلية ، من حكام المسلمين وأمرائهم ، رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين وإحكاماً لعرى جامعتهم لتمسك سلاطينها من آل عثمان العظام ـ طاب ثراهم وجعل دار الخلد مثواهم ـ بعروة الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله ، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء ... [٣]

ويعلن أن ثورته إنما هي على الاتحاديين الذين تسلطوا على الدولة وتحكموا في شؤونها وحرفوها عن سبيل الحق والدين فيقول ـ بعد ثنائه على سلاطين آل عثمان ودولتهم ـ : ثم نشأت في الدولة جمعية الاتحاد والترقي وتوصلت إلى القبض على إدارتها وجميع شئونها بقوة الثورة ، فحادوا بها عن صراط الدين ، ومنهج الشرع القويم ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار أئمته ، وسلبوا شوكة السلطان المعظم ... وجعلوه هو ومجلس الأمة ومجلس الوكلاء منفذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية ، وأسرفوا في أموال الدولة ... وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة ... وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد ... [٤] .

ولقد كان الإنجليز يسعون إلى تمزيق الأمة الإسلامية ولذا ساندوا دعاة القومية العربية ، وأغروهم بمحاربة الأتراك ، ووعدوا شريف مكة بتأسيس مملكة عربية يتولى رئاستها ، وعملوا على تغذية هذا الشعور فلنستمع إلى آغا خان حيث يقول في مذكراته : « كانت القومية العربية

---

(١) نقول نصارى ولا نقول مسيحيين قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » سورة الحاقة الآية ٥١ ، وهذا أمر يحسن الالتفات إليه فقد درج معظم المسلمين على تسمية النصارى بالمسيحيين .

(٢) جاء في كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس « ١٤٩ » أن خمسة من الشبان النصارى الذين درسوا في الكلية البروتستنتية في بيروت ألفوا سنة ١٢٩٢ هـ ـ ١٨٧٥ جمعية سرية ، وأنهم استطاعوا عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني ، وأنهم كانوا يوزعون المنشورات التي تندد بالأتراك وتدعو العرب إلى الثورة ضدهم والإطاحة بهم ، وأن أول جهد منظم في حركة العرب القومية يرجع إليهم .

(٣) دراسات في الثورة العربية الكبرى : ص ١٨٣ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

آخذة في الصعود ، وكان لها أصدقاء أقوياء كثيرون ودعاة متحمسون في الحكومة البريطانية ومَنْ حولها ومن هؤلاء السير جيلبرت كلايتون ، وتي . اي . لورانس . وكثيرون ممن يُدعون بالضباط السياسيين الذين خدموا في الشرق الأوسط .

ويتعين عليّ القول من معرفتي الخاصة أن الإنجليز كانوا يشجعون القومية العربية في كل مناسبة من المناسبات ، أحياناً في الجهر وأحياناً في السر ، قبل سقوط تركيا بزمن طويل ... » [١]

وهناك فريق ثالث نادى بالإصلاح في جهاز الدولة العثمانية كله . وأخذ يؤلف الجمعيات السرية للدفاع عن العرب وإصلاح البلاد العربية . وكان أفراد هذا الفريق يساندون تركيا ويؤيدونها ويقاومون الانفصال . فحين قامت الحرب العالمية الأولى انضم عدد كبير من الضباط العرب الذين كانوا في جمعية العهد السرية إلى صفوف الأتراك وقاتلوا بحماسة تحت راية الخلافة الإسلامية والدولة التركية [٢] .

وكان ذلك منهم قبل أن تنكشف نوايا الاتحاديين ، وقبل إسقاطهم للخلافة الإسلامية .

ولقد أدى هذا الخلاف بين الشعبين المسلمين العربي والتركي إلى أن قام عدد من الشعراء يحضّونهما على الوئام ويحذرونهما من الخصام . فقد نظم فؤاد الخطيب قصيدة دعا فيها إلى الوفاق بين ركني الأمة الإسلامية الكبيرين العربي والتركي فقال : [٣]

أإخواننا الأتراك مدّوا لنا يداً ... من الود إنا قد مددنا لكم يدا
ألسنا بحمد الله شعباً موحداً ؟ ... فما بالنا لم نرض شملاً موحدا ؟

ثم مزج الشاعر بين العروبة والإسلام ، وناشد الأتراك أن يجعلوا لغة القرآن الكريم جامعة للشعوب الإسلامية فقال :

خذوا لغة القرآن جامعة فإن ... فعلتم جمعتم شمل أبناء أحمدا
وكانت لكم في الشرق والغرب هيبة ... تخر لكم شم الممالك سُجَّدا [٤]

---

(١) مذكرات آغا خان : ص ٢١٨ .
(٢) ـ جزيرة العرب : ص ١٥٥ . ـ تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٥٢ .
(٣) ديوان الخطيب : جزء ١ ، ص ٣١ .
(٤) السجود لا يكون لغير الله . وهذا الكلام من مبالغات الشعراء .

obeikandl.com

ثم حذر من الفرقة فقال :

فلا تفتحوا باب الخلاف وسارعوا إلى السعي إن الشرق قد طاب معهدا

وفي قصيدة أخرى أطرى الشاعر الأتراك ، وأكد رسوخ الوحدة الإسلامية فقال : [١]

العرب تشكرهم والـدين يُؤْثرهم والله ينصرهم والعهـد والذمـم
وما الليالي وإن جارت تفرقنا لسنا وإيـاهم في الله نختصم
لكننا نطلب الحـق الذي هتفـت به المساواة والأحكام والحكم

ودعا الشاعر العراقي محمد الهاشمي المسلمين إلى الاتفاق ، وعجب من اختلافهم وخص الشعبين العربي والتركي بالخطاب فقال : [٢]

الدهر ينذرنـا في كـل آونـة والمسلمون على استخذائهم شيـع
ترك وعرب وأهـواء مضللـة الجهل يحكم والأطماع تقترع

ثم تمنى أن يخرج بين المسلمين « رشيد » جديد ، فيقود المسلمين في طريق الحق والخير فقال :

ألا رشيـد من الإسلام يرشدهـم إلى السداد فقد ذلوا وقد خنعـوا

هذا ومن نافلة القول أن نشير إلى أن معظم دعاة القومية العربية وأنصارها شوهوا تاريخ السلطان عبد الحميد العثماني رحمة الله عليه وخلطوا بين عصره وعصر الخلفاء الذين تلوه ، وعلى المؤرخين أن يصححوا ما استقر في أذهان الكثير من المسلمين ، فالفساد والظلم والتحلل من الدين ومقاومة اللغة العربية إنما حصل في عهد الاتحاديين ثم الكماليين لا في عهد السلطان عبد الحميد .

ثم إن النصارى العرب اغتنموا فرصة الخلاف التركي العربي وأخذوا يبثون سمومهم بين العرب ويسعون إلى تناول المسألة العربية تناولاً علمانياً بعيداً عن الإسلام .

(١) ديوان الخطيب : جزء ١ ، ص ٢٧ .
(٢) ديوان الهاشمي : ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

ولقد انخدع بهم الكثير من أبناء المسلمين فساروا وفق المنهج الذي رسمه لهم هؤلاء النصارى فأخذوا يصورون لنا أدب هذا العصر تصويراً قومياً بعيداً عن الإسلام وكأن العروبة شيء والإسلام شيء آخر . ولقد أخذوا يبترون من أدب هذه الفترة ما يستشهدون به على ما يزعمون ، فكم صوروا الرصافي ـ رحمة الله عليه ـ بصورة القومي العربي المتطرف . ونسوا أو تناسوا أنه هاجم العرب الذين عقدوا مؤتمراً لهم في باريس وطالبوا فيه بالانفصال عن تركيا حيث قال : [1] ..

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً ... لما امتطوا غارب الإفراط مركوبا
وألهبت منهمُ الأهواء جاريةً ... إلى التفرق ألهوباً فألهوبا
كانوا أحق البرايا مطلباً فغدوا ... من أبطل الناس في الدنيا مطاليبا
راموا انشقاق العصا بالشَّغب ملتهبا ... والحقد مضطرماً والضِّغن مشبوبا

وخصّ الشاعرُ عبد الغني العريسي الذي عقد المؤتمر باللوم والعتب فقال :

قل للعريسيّ والأنباء شائعةٌ ... والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد في باريس مؤتمراً ... ما كنت فيه برأي القوم مندوبا

ثم هاجم حقي العظم الذي أرسل إلى جريدة الطان الباريسية طلباً يناشد فيه الحكومة الفرنسية التدخل في أمر سورية ، ووصف عمله بأنه كعمل الحمل الذي يطلب المعونة من الذئب فقال :

وهل تعمد « حقي العظم » فعلته ... لما نما خبراً للطان مكذوبا
إذ راح يستنجد الإفرنج منتصفاً ... كأنه حمل يستنجد الذيبا

ثم تمنى لو أن هذا المؤتمر عقد في بلد ليست له أطماع استعمارية فهو يريد الإصلاح وينشده فقال :

لو كان في غير باريس تألبهم ... ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا
لكن باريز ما زالت مطامعها ... ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا

(١) ديوان الرصافي : جزء ١ ، ص ٤٠٢ .

ولم تزل كـل يوم من سياستهـا تلقي العراقيل فيها والعراقيبـا
هل يأمن القـوم أن يحتـل ساحتهم جيش يدكُّ من الشام الأهـاضيبـا

هذا ولقد صدقت نبوءة الشاعر فيما بعد . فقد احتل الفرنسيون الشام ولم يخرجوا منها إلا بعد جهاد طويل .

وختم الشاعر القصيدة بتحذير الناس من دعوة هؤلاء القوميين فقال :

يـا أيهـا القوم لا يغرركم نـفر ضجوا ببارِيز إفساداً وتشعيبا
جاءت رسائلهم بـالشر مُغريـة تفتنُّ في المكر أسلوباً فأسلوبا
فطـالعوهن بالأيـدي مطـالعـة تسطو عليهن تمزيقاً وتـأريبا
إن يصـدقوا إنهم لا يلبسون سوى محض النصيحة في الدعوى جلابيبا
فسوف يقرع كلٌّ سِنَّـه ندمـاً ويُسبل الدمعَ في الخدين مسكوبا

ثم إنّ مشاركة الرصافي الشعرية في الحرب التي وقعت بين العثمانيين والبلقان تكذيب لادعاءات وافتراءات دعاة القومية العربية الذين يبترون من شعره بعض الأبيات ويوجهونها توجيهاً قومياً لتأييد ما يذهبون إليه .

إنه بقصائده تلك يكذبهم ويسفه صنيعهم . فالوطن عنده هو الوطن الإسلامي الواسع الذي يضم مختلف الأجناس المسلمة . والخطاب إنما يوجه دائماً للمسلمين الذي هو فرد منهم . وإنه ليقرر ذلك دائماً في قصائده . بل إنه هاجم العرب الذين تخلوا عن مشاركة العثمانيين في هذه الحرب حيث قال : (١)

أيهـا المسلمون لستم من الغر ب بحال تستوجبون احترامـا
إنمـا أنـتم لـدى الغرب قـوم خُلقوا عن سوى الشرور نيامـا
كم بأرض البلقان منكم قتيـل وأيامى مُضاعـة ويتـامـى
نثر الظالمـون في الأرض منهـم جثثـاً تملأ الفضـاء وهامـا
ما نضا للدفاع عنهم بنو العُر ب حساماً ولا أحاروا كلامـا
إن تكن هذه السياسة عـدلاً فإلى الظلم نشتكي الآلامـا
رحم الله أمة أصبح الغـر ب يرى كل ذنبها الإسلامـا

(١) ديوان الرصافي : جزء ٢ ـ ص ٤٣٤ .

حروب تركيا والرابطة الإسلامية

ما إن تولى الاتحاديون مقاليد الحكم في تركيا ، حتى هجمت بعض الدول الاستعمارية على أجزاء من الامبراطورية العثمانية الواسعة . وقامت الحرب بينها وبين تركيا .

ولقد أثارت هذه الحروب حماسة الشعراء ، ودعت معظم المسلمين إلى الالتفاف حول تركيا على الرغم من العنصرية التي انتهجها رجال الاتحاد والترقي وذلك لأنها مقر الخلافة الإسلامية ولأن وشائج الدين تربطهم بها . ولأن مناصرة الدولة العثمانية كانت تعني مقاومة الاحتلال الأجنبي والاستعمار .

ولقد أرهقت تلك الحروب الدولة العثمانية ، وتعاقبت عليها خلال الفترة الوجيزة من حكم هؤلاء الخلفاء . فاستمرت ستة عشر عاماً حتى فُتَّ في عضدها وتمكنت الدول الاستعمارية من تنفيذ أطماعها .

ولم يستطع أولئك الخلفاء تجنب تلك الحروب . وذلك أن السلطة كانت في أيدي رجال الاتحاد والترقي .

ومن خلال هذه الحروب تمكنت الدول الاستعمارية من تحقيق مطالبها في الدولة العثمانية . ونفذت رغباتها التي عجزت عن تنفيذها خلال حكم السلطان عبد الحميد العثماني الذي كان يدرك أخطار تلك الحروب ويعلم أن القوى العالمية أقوى منه . وأنَّها متحدة ضده ، ولذا عمل طيلة حكمه الذي أربى على ثلاثين عاماً على أن يجنب بلاده تلك الحروب وقد نجح في ذلك باستثناء الحروب الروسية التي انفجرت عقب توليه السلطة مباشرة فإنه لم يتمكن من تفاديها لأن مجلس الوزراء كان يعاكسه [١] .

ولقد كشف في مذكراته عن سر كان يكتمه طيلة حكمه وهو أنه بعد أن تولى السلطة ، وخسر الحرب الروسية . وأدرك أطماع الدول في بلاده لم تكن لديه القوة ليقاوم تلك الدول . ولذا حبس الأسطول في الخليج ولم يخرجه ولو للتدريب وتجاهل الحرب اليونانية لكي لا يدع للانجليز منفذاً للاستيلاء على « كريت » وكان ذلك منه خوفاً من التصادم مع تلك الدول . وترقباً لاختلاف الدول الكبرى المتنافسة على اقتسام الدولة العثمانية . واقتناعاً بأن ذلك التنافس سيجرها إلى التصارع والتصادم فيما بينها . مما يجعل الدولة العثمانية بعيدة عن أخطار التمزق

(١) تاريخ الدولة العثمانية : ص ١٧٠ .

obeikandl.com

والتقسيم . ولكن تلك الفرصة العظيمة التي ظل ينتظرها أربعين عاماً ولت وأفلتت من يد الدولة العثمانية إلى الأبد كما يقول [١] . وزج رجال الاتحاد والترقي بالدولة في تلك الحروب التي كان منها ما كان ومن تلك الحروب حرب طرابلس التي شنت سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ م وحرب البلقان التي اندلعت سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م ثم الحرب العالمية الأولى التي قصمت الظهر ومزقت الدولة سنة ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٤ م .

ولقد حركت تلك الحروب مشاعر الشعراء وأثارت حماستهم . وهزت وجدانهم وجعلتهم يدعون إلى وحدة الصف تحت راية الدولة العثمانية . ويتغنون بالخلافة رمز الوحدة الإسلامية . ويمجدون البطولات . ويهاجمون المستعمر . ويندون بكل خارج على الدولة العثمانية .

وكان يدفعهم إلى ذلك الشعور الديني العميق . والخشية من بعثرة القوى وتفريق الشمل ، والخوف من الدول الاستعمارية التي تهدد بلادهم بالاحتلال والتقسيم .

وفيما يلي نماذج من الشعر الذي كان نتيجة لتلك الأحداث الجسام :

أولاً : الحرب الطرابلسية

في سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ م أغارت إيطاليا على طرابلس تريد امتلاكها واشتبكت في حرب مع أبناء تلك البلاد ومع القوات التركية ، وقد تطوعت جموع كثيرة من مختلف الأقطار الإسلامية وانضمت إلى صفوف المجاهدين .

قال الأمير شكيب أرسلان : إنه عندما كان هناك مجاهداً . كان معهم إخوة في الله مجاهدون من تونس والجزائر والمغرب الأقصى ومن السودان ومن مصر والشام ومن بلاد الترك ومن بلاد الأفغان [٢] .

وكان يحدو هؤلاء المجاهدين الدافعُ الديني العميق للذود عن هذا القطر الإسلامي المربوط بدولة الخلافة الإسلامية . ولحماية الدين الإسلامي هناك من تلك الهجمة الصليبية الشرسة .

ولقد أقلق ذلك الالتحام الإسلامي الدول الغربية وأزعجها . وتساءل ساستها عن ذلك الخطب الكبير فقال غبريال هانوتو ـ وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين ـ [٣] : بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس ـ غير المحصنة ـ كوكر الزنابير اللسّاعة ؟ أليس ذلك لأنها

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٢) حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ ، ص ٣١٢ .
(٣) المصدر السابق : جزء ١ ، ص ٣١٢ .

لا تحارب تركية وحدها وإنما تحارب العالم الإسلامي كله . فإيطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها .

وقال السنيور [١] جيوليتي في خاطراته : إن انكلترا ألحت عليه ـ وكان أيام الحرب الإيطالية رئيس نظار إيطالية ـ أن يتفق مع تركيا لإنهاء هذه الحرب التي أثارت جميع العالم الإسلامي . وأن الاحتجاجات وردت على انكلترة لا من الهند فحسب . وإنما من سائر بقاع العالم الإسلامي حتى من الصين .

ولقد أثارت تلك الحرب عاطفة الشعراء الإسلامية وهزت مشاعرهم . فهي اعتداء صريح على بلد مسلم يربطهم به الدين واللغة . فانطلقوا ينظمون القصائد تلو القصائد يحضون فيها الناس على الجهاد . ويحثونهم على التبرع . ويرثون القتلى ويدعون العرب والأتراك إلى التكاتف لمكافحة المحتل . ويهاجمون إيطاليا الدولة الاستعمارية الحقود .

وكان من بين أولئك الشعراء من اصطلى بنار تلك الحرب وتطوع مع المجاهدين كالأمير شكيب أرسلان . وأخيه نسيب . وكأمين آل ناصر الدين الشاعر اللبناني وإنَّه لحق « أن الحرب الطرابلسية كانت ـ شأن كل الحروب في هذا العصر ـ سبباً عاطفياً هز المسلمين جميعاً . ولم يتخلف عن التأثر بها شاعر . فقد اشترك الجميع مخلصين في الدفاع عن حقوق طرابلس الغرب العربية المسلمة . وكان لهذه القصائد صدى عميق الأثر كشف عن وعي الرأي العام في المشرق العربي المسلم ؛ إذ كانت هذه العواطف صادقة بعيدة عن التزلف والمداجاة والنفاق . فهم ذادوا بشعرهم عن طرابلس وسواها . أملاً بالثواب الآجل . لا رغبة في الأجر العاجل من أمير أو سلطان . فهم زاهدون بعطف الولاة وإرضاء الحكام . وكان الشاعر يسمو بعواطفه الكريمة يدفعه دافعان : أولهما الدافع الديني العميق الذي يربطه بهؤلاء العرب الذين تطحنهم رحى الاستعمار بدون رحمة . وثانيهما الدافع الإنساني حين يرى أخاه الإنسان يفقد حريته واستقلاله . غير أن الدافع الديني كان أمتن وأقوى من دوافع الشعر الأخرى . لذلك أكثر الشعراء من النظم في هذا المضمار [٢] .

وسنتناول بعض النماذج التي تصور عاطفة الشعراء الإسلامية وشعورهم بالوحدة الإسلامية والرابطة الدينية نحو إخوانهم الذين اصطلوا بنار الحرب وذاقوا مرارة التعذيب والقتل والتشريد .

ونبدأ بالأمير شكيب أرسلان فقد اكتوى بنار تلك الحرب وكتب عن جرائم الطليان التي ارتكبوها بحق الشعب الليبي المسلم الأعزل . فذكر أن الجنود الإيطاليين كانوا يهتكون

(١) حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ . ص ٣١٢ . الهامش .

(٢) الشعر العراقي الحديث : ص ٥١ .

الأعراض ويدوسون المصاحف الشريفة بأقدامهم ويريقون الخمور بالمساجد ويقتلون الأبرياء . وروى من فظائعهم أنهم حملوا الشيخ سعد شيخ قبيلة الفوائد وخمسة عشر شيخاً من رفاقه بالطائرات وقذفوا بهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطع إرباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين : ليأت نبيكم البدوي محمد الذي أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا .

وأشار إلى أن المظاهرات جرت في الشام وحلب وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين . وأن الاجتماعات انعقدت في كل مكان لاستنكار أعمال إيطاليا في طرابلس . وأن المسلمين أبرقوا بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بجنيف . وذكر أن الجرائد العربية قامت قيامتها وحملت على توحش الفاشيست وامتلأت الجرائد المصرية بالاحتجاج على إيطاليا ورميها بالمطاعن . وأن الحكومة المصرية عطلت بعض تلك الجرائد استجابة لطلب الحكومة الإيطالية . ووصل الصريخ إلى الهند والجاوى . وعقدت في الجاوى اجتماعات كبيرة حضرها الوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطباً شديدة اللهجة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الإيطالية [١] .

ولقد نظم شكيب أرسلان[٢] قصيدة وهو في ساحة الجهاد سخر فيها من إيطاليا وظنها أن المسلمين تزعزع بنيانهم وذهبت قوتهم فقال :

وظنت عُروش الشرق مالت وأصبحت ... كأن لم يكن بين الصفا وحجونها
وأن زمان الثأر وافى فأوجفت ... ألا خاب ما قد قدمت من ظنونها

وأبان أن الإسلام لا يزال قوياً بأهله . وأن القرآن لا تزال روعته وتعليماته باقية في نفوس المسلمين فقال :

فلم يزل الإسلام غضّاً بأهله ... ونيرانه لم تنطفئ بكمونها
وما رقرق القرآن ماء طباعها ... فهيهات يخشى من نضوب معينها

ثم توعد وتهدد فقال :

فلا يغترر قوم بظاهر لينّنا ... فما الصعدة السمراء هوناً بلينها
لنا من بني عثمان كل غضنفر ... تخر له أبطالهم لذقونها
فلسنا نباهي أن نحرنا سخالها ... وقبلاً صرعنا أسدها في عرينها

(١) حاضر العالم الإسلامي : جزء٢ . ص ٦٤ وما بعدها .
(٢) ديوان شكيب أرسلان : ص ١٠٤ ـ ١٠٧ .

ثم أشاد بالخليفة العثماني فقال :

سلمت أمير المؤمنين لأمة ... محمد طول الدهر نور عيونها

وأهاب بخديوي مصر أن يهب للنجدة :

أعباس يا عضد الخلافة والذي ... يضاء به في داجيات دجونها
تحن إلى ناديك مهجة غائب ... يقطعها في البعد فرط حنينها
فإن تك آلت نجدة لقبيلها ... فمثلك من يرضى ببر يمينها

ثم بكى الشاعر إخوته الطرابلسيين وما يلقونه من عذاب وأسى فقال :

هناك لنا في جانب الغرب إخوة ... تسومهم البؤس العدا بفنونها
بكينا لها نحن الألى ما تعودت ... مدامعهم في الخطب بذل مصونها

وأعلن الشاعر أن الوقوف معهم أمر واجب وأن رابطة الرحم تفرض ذلك فقال :

ترى النفس ديناً وقفة في صفوفها ... قضاء عن الأرحام بعض ديونها
فما الشام والنيل السعيد ودجلة ... سواها لدى أفراحها وشجونها

ويقسم ألا يقبل ذلك الظلم :

ووالله لا أعطي المقاد لظالم ... ولما أرد بالنفس حوض منونها
إذا بات إخواني ببرقة سهَّداً ... فكيف تنام العين ملء جفونها ؟

وشارك نسيب أرسلان ـ الذي حل بطرابلس [١] مجاهداً مع شقيقه الأمير شكيب ـ غيره من الشعراء ، فنظم قصيدة استنهض فيها همة الخليفة العثماني وحذره من مهادنة تركيا للإيطاليين وصلحها معهم فقال : [٢]

علام نروم الصلح والصلح شائن ... إذا كان منَّانَا العدو بما منى

(١) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ٢٥٣ .
(٢) روض الشقيق : ص ٤٦ .

وأيَّ خسار قد حملنا ببرقة ... وأيَّ خميس في مدارجها سقنا
فللحرب أهلوها ونحن بنجوة ... فما ندَّعي فضلاً عليهم ولا منا
يغيرون حتى عافت الخيل ربطها ... وحتى كأن السيف قد عانق الجفنا
ولو لم يكونوا للخليفة شيعة ... لما شمروا للحرب ذيلاً ولا ردنا
فلا صلح إلا أن نصون ذمارنا ... وإلا تقلدنا الغضاضة ما عشنا

ولقد ألفت اللجان في مختلف الأقطار الإسلامية لجمع التبرعات للمجاهدين . ففي مصر اندفع المصريون لمساعدة إخوانهم الطرابلسيين ، وأقيمت في القاهرة سوق خيرية لشراء أشياء يعود ثمنها إلى المجاهدين والجرحى [١] .

وألقيت في هذه السوق بعض القصائد لحث [٢] الناس على التبرع للمجاهدين ومن هذه القصائد قصيدة لشوقي قال فيها : [٣]

جبريل هلل في السماء وكبِّر ... واكتب ثواب المحسنين وسطر
سل للفقير على تكرمه الغنى ... واطلب مزيداً في الرخاء لموسر
وادع الذي جعل الهلال شعاره ... يفتح على أمم الهلال وينصر
وتولَّ في الهيجاء جند محمد ... واقعد بهم في ذلك المستمطر
يا مهرجان البر أنت تحية ... لله من ملأ كريم خبر
لو يعلمون السوق ما حسناته ... بيع الحصى في السوق بيع الجوهر
جبريل يعرض والملائك باعة ... أين المساوم في الثواب المشتري ؟
ومجاهدين هناك عند معسكر ... ومن المهابة بين ألف معسكر

وألقى الأمير شكيب أرسلان قصيدة قال فيها : [٤]

أخلاي سوق للمنايا مُقامَةٌ ... تباع حِفَافِيها غوالي الجماجم [٥]

(١) ديوان الأمير شكيب أرسلان : ص ١٠٧ .
(٢) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٤١ .
(٣) ديوان شوقي : جزء ١ . ص ١٧٢ .
(٤) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٤٣ .
(٥) حفاف الشيء : ما استدار حوله وأحدق به .

فهـل لكمو في سوق بر ورحمـة تنالـون فيهـا باقيـات المغـانم
غياثـاً لمظلـوم ونصراً لصـارخ وضمـداً لمجروح وقوتـاً لصائم
كفى بالهلال الأحمر اليـوم هادياً لمن حار في ليل من الشك داهم

وفي الآستانة [١] أقيم حفل في المنتدى الأدبي العربي ألقيت فيه الخطب لحث الناس على مساعدة المسلمين والدفاع عن الإسلام في طرابلس ، وأنشد الشاعر محمد حبيب العُبيدي قصيدة تقرب من خمسمائة بيت تتضمن أهم الحوادث التاريخية من عهد الرسالة إلى عصره . وقد ألقى فيها على الشرقيين مسئولية الذود عن طرابلس فقال : [٢]

سهرت كـل أمـة ورقدنـا فلهـا الذكـر دوننـا والثنـاء
كيف ترضى يا شرق أن يمشي الغر ب أمامـاً وأنت تمشي وراء ؟

ثم يفخر الشاعر بما كان للمسلمين من مجد قديم . ويذكر الشعوب الإسلامية بما ورثته من عز وكرامة ويخلص من ذلك إلى الحرب الإيطالية فيرفض الذل ويأبى الهوان حيث يقول :

أَنَـامُ الهـوان دون المنايـا إنما المـوت والهوان سواء
ليس دار الهـوان للحر داراً إنمـا الحـر داره الجـوزاء

ثم يتساءل عن أسباب النقمة علينا فيقول :

ليت شعري مـا ينقم القـوم منـا ؟ أم على أبصار هناك غشاء ؟
ليت شعري مـا ينقم العمي منـا ؟ رب قـوم أرض ونحـن سماء

ويعود للفخر فيقول :

نحن شيء وغيرنا بعض شيء نحن نور وغيرنا الظلمـاء
نحن بحر ومن سوانـا سراب نحن در وغيرنـا الحَصْبـاء

(١) لأدب العصري في العراق العربي : جزء ١ . ص ١٤٨ .
(٢) لمصدر السابق : جزء ١ . ص ١٤٨ ـ ١٥٢ .

ويقرر جامع ديوانه أن العُبَيدِي [١] كان يدعو إلى اتحاد المسلمين ووجوب مؤازرة الخلافة العثمانية إزاء أطماع الدول الغربية (الكافرة) . وأن اعتداء الطليان على طرابلس الغرب الذي بدأ سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ م ثم حرب البلقان التي تلتها كانا حافزين له على إلقاء قصيدته المشار إليها آنفاً . وأنه ألف رسالة بعنوان (خطبة نادي الشرق) دعا فيها إلى اتحاد العرب والأتراك وبقية المسلمين للذود عن حمى الإسلام وصدّ اعتداء (الكفار) الغربيين .

ويؤكد جامع [٢] ديوانه أن الحمية الدينية والغيرة الإسلامية دفعت به قُدماً إلى مؤازرة الدولة العثمانية . وأنه نظم الكثير من القصائد في استنهاض الهمم والدعوة إلى الجهاد المقدس .

ويذهب الشاعر اللبناني أمين آل ناصر الدين . إلى طرابلس وينضم متطوعاً للقتال مع السنوسيين ويشهد العديد من المواقع ويسجلها في قصيدته (الحرب الظالمة) التي يقول فيها : [٣]

يا يوم (طبروق) نعم اليوم أنت فقد ... كذبت للمعشر الطاغين ما زعموا
يا يوم (درنة) كم نابتهم نوب ... وكم ألم بهم من بأسنا ألم
وحبذا يوم (بنغازي) ونحن كما ... تبغي البسالة . لا وهن ولا سأم

ويمضي في إيراد الوقائع مع الجيش الإيطالي . ويشيد بالسنوسيين فيقول :

لله (آل سنوس) عندما صرخوا ... الله أكبر ! ! إن الصارم الحكم
ضجت كتائب (كانيفا) [٤] بما لقيت ... منهم . وقد فَتَّ في أعضادها الندم
يغامرون لكي يستشهدوا فهم ... يرون أن المنايا في الوغى نعم

وينوه الشاعر بفتاة لبّت داعي الجهاد . وفضلت الموت على هتك العرض فقال :

لله (فاطمة) لما أهاب بها ... داعي الجهاد فكرت والعدا تجم
ما راعها جيش (كانيفا) وكثرته ... ولم تخل قط إلا أنه نعم
خط العفاف على وضاح جبهتها ... الموت أفضل من أن تهتك الحرم

---

(١) ذكرى حبيب . (ديوان السيد محمد حبيب العبيدي) : ص ٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ٨ .
(٣) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٤) كانيفا : هو القائد العام الذي تولى حملة احتلال ليبيا .

ثم استهزأ بالطليان وظنهم أن طرابلس روضة سوف يقطفون أزهارها فقال : [١]

ظنوا طرابلساً روضاً لنزهتهم ... وما دروا أنهم في ظنهم أثموا
روض أزاهيره هام مفلقة ... ومـاؤه مـا أسال الصارم الخـزم

وقد شارك محمد الصادق الفقي التونسي غيره من الشعراء فهاجم الطليان الذين دمروا البلاد ونشروا فيها الفساد فقال : [٢]

جيش من الطليان داس حقوقكم ... حصروا البلاد ودمروا الأسوارا
نشروا جراثيم الفساد وغيروا ... خصب المروج ليزرعوا الأقذارا

ويستحث الشاعر اللبناني الأصل فؤاد الخطيب العرب والأتراك والشرق لينصروا إخوتهم فيقول : [٣]

يا آل عثمان من ترك ، ومن عرب ... هبوا فقد صرخت تحت الثرى الرمم
يا للخلافة ! ! قد ضاقت محاربها ... يا للمروءة ؟ والمظلوم متهم
أجدادكم يا رجال الشرق ترقبكم ... لا الغيب يحجبكم عنها ولا العدم

ويقول الشاعر المصري عبد المطلب وقد طارت نفسه حزناً وأسى على أهل ليبيا : [٤]

خليلي ما لي إذ تذكرت برقة ... بجنبي نيران الأسى تتلهب
نعم راعني من نحو برقة صارخ ... يُهيب بأنصار الهلال ألا اركبوا
دعا صارخ الإسلام يا لبني الهدى ... أغار العِدا أين الحسام المشطَّب ؟
كأني به يدعو الخلافة مُسْمِعاً ... كأني به في المسلمين يُثَوِّب

ويحذر أعداء الإسلام من قوة المسلمين فيقول :

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ٢٦٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٦٣ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٦٠ . ولاحظ مصدره .
(٤) ديوان عبد المطلب : ص ٢٩ .

حـذار فللإسلام في كـل بقعـة ... سراة إذا ما أجدب الناس أخصبوا
حـذار فللإسلام في كـل أمـة ... حماة إذا ما شزر الدهر قطَّبـوا
حـذار فللإسلام في كـل بلـدة ... دهـاة إذا مـا أظلم الرأي أثقبـوا [١]

وينبه المسلمين إلى أن الاعتداء على طرابلس إنما هو اعتداء على الدين والخلافة فيقول :

بني مصر هـذا الدين يدعو فأقبلوا ... على الله في تأييـده وتقربـوا
بني مصر قـد رام الخلافـة معشر ... تنـادَوْا عـلى غدر بهـا وتألَّبـوا
فذاقـوا وَبَالَ الغـدر واشتجرت بهم ... مواقف خِزي في طرابلس تُكْتَب
بني مصر هـذا موقفُ العزم فانهضوا ... سراعـاً إلى إحـرازه وتـألبـوا
إذا مـا تنـادى المسلمون فإنمـا ... لنجدتنـا كـل الممالك تـرقب
وكم في سبيل الله من أرْيحيّـة ... لمصر بهـا رَأْبُ الخلافـة يُشْعَبُ [٢]
تفيض على الإسلام بالجود أنعُمـاً ... غزاراً إذا ما أخلف الأرض صيِّب

وللشاعر قصيدة أخرى يفخر فيها بأبطال الإسلام وليوثه فيقول : [٣]

ومنـا كـل أروع يعـربـي ... تسامى نَجْرُه [٤] في اليعربينـا
ومنـا ساكـن الجغبـوب نلوي ... به زنـد الخطوب إذا بلينـا
ومنـا كـل تركي أبـي ... تأثـل مجـده في الأولينـا
تعرفت الحوادث منـه قلبـا ... عـلى الأزمـات يأبى أن يلينـا
ليـوث من بني الإسلام شُوسٌ ... بهم نسطـو ونمنـع مـا ولينـا [٥]

(١) أثقبوا : أناروا أو أتوا بالثاقب من الرأي .
(٢) الأريحية : الخصلة الكريمة ـ والرأب : الصدع ـ وشعبه : جبره .
(٣) ديوان عبد المطلب : ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .
(٤) نجره : أصله .
(٥) شوس : جمع أشوس . وهو من ينظر بمؤخر عينه تكبراً .

وينشيء أحمد الكاشف قصيدة يستهلها بخطاب الخليفة فيقول : (١)

المؤمنون إليك مستبقونا لذمارهم وديارهم فادونا
فاحشد كتائبك التي أعددتها للحق أبلج والرجاء متينا

ويسخر فيها من إيطاليا ويتساءل عما جناه المسلمون عليها فيقول :

يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم مستنكراً ما أنتم جانونا ؟
أوصاكم بالمعتدين فما لكم بالآمن المأمون فتاكونا
ماذا جناه المسلمون عليكم وهم على الأمصار غلابونا ؟

ويقول الشاعر المصري محمد بن محمود إن أعداء الإسلام يريدون بهذه الحرب القضاء على الإسلام : (٢)

يا آل عثمان وليس سواكم حام نبا أنتم حماة ذمار (٣)
ليست طرابلس سوى أحبولة نصبت لكم من طامع غدار
كيما يزال الدين دين محمد والدين جم الحول والأنصار
ويرى الهلال ولا رأوه منكساً خزيان يرجو عنه كشف العار
هل بعدكم للمسلمين ودينهم من عاصم في ذلك الزخار
حق علينا نصركم إذ إنه نصر لدين الواحد القهار

وهو يتمنى أن يكون مع المجاهدين :

يا ليتني بين الصفوف مجاهد لله بالأسياف والأشعار
حتى إذا استشهدت زدت معزة وإذا حشرتُ حشرت في الأبرار

أما حافظ إبراهيم فيستثير حمية المسلمين حيث يصور الجرائم التي ترتكبها الجيوش

(١) ديوان أحمد الكاشف : جزء ٢ . ص ١٧ .
(٢) ديوان ابن محمود : جزء ٢ . ص ٩٤ .
(٣) ن. : من معانيها : العلو والارتفاع .

الإيطالية ويندد بتمثيلهم بالقتلى دون تفرقة بين شيخ أو امرأة أو طفل فيقول : [١]

كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا ... بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم ... يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاماً [٢]

أما شوقي فيحث الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على الاتحاد والتعاون والإخاء فيقول : [٣]

يا قوم عثمان والدنيا مداولة ... تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا [٤]
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به ... فالله قد جعل الإسلام بنيانا
البر من شعب الإيمان أفضلُها ... لا يقبل الله دون البر إيمانا
هل ترحمون لعل الله يرحمكم ... بالبيد أهلاً وبالصحراء جيرانا
في ذمة الله أو في ذمة نفرٌ ... على طرابلس يقضون شجعانا

ويشارك إسماعيل صبري غيره من الشعراء فيدعو إيطاليا إلى مراقبة الله والإقلاع عن الغدر والظلم فيقول : [٥]

بعضَ هذا الجفاءِ والعدوانِ ... راقبي الله امةَ الطليان
قد ملأت الفضاءَ غدراً وجهلاً ... وتسنَّمت غاربَ الطُّغْيان [٦]
وبعثتِ السفين ترمي طرابُلـ ... ـس بحربٍ مشبوبةِ النِّيرانِ
تخرِقُ البحرَ والمواثيقَ والعهـ ... ـدَ جهاراً وذِمّة الجيران

ثم يشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها تركيا في بلادها لدول أوروبا لتسهيل تجارتها في بلاد الشرق وذلك إحساناً منها ومنحة ، لا ضعفاً وخوراً فيقول :

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جزء ٢ ، ص ٦٦ .
(٢) الزمنى : ذوو العاهات .
(٣) الشوقيات : جزء ١ ، ص ٣٠٣ .
(٤) مداولة : من داول الله الأيام بين الناس ، أي صرفها بينهم .
(٥) ديوان اسماعيل صبري : ص ١٨٣ .
(٦) تسنم الشيء : علاه ، والغارب : العنق .

ويحهم ما لصنعهم أَبْطَرَ القَو ... مَ فعقُّوا ما كان من إحسانِ
ولِمَاذا تَمخَّضَ السلم عن حر ... ب لظاها يَشْوي الوجوه عَوَانِ [1]
مِنَحٌ قد بُذِرْنَ في شرِّ أَيْدٍ ... كُنَّ مُذْ كُنَّ مَنْبِتَ الكُفرانِ
هكذا فَلْتَكُ المُروءاتُ فِي عصـ ... ـرِ البهاليلِ من بني الرُّومان

وقد هزت الحرب الشاعر العراقي معروف الرصافي فنظم ثلاث قصائد دعا فيها المسلمين إلى الاتحاد وحمل السيف واليقظة ومساعدة المجاهدين ، فهذه الحرب حرب صليبية استعمارية يراد بها السيطرة على الشرق المسلم كله والعبث بمقدراته فيقول : [2]

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب ... وقبِّل غرار السيف واسْلُ هوَى الكتب
ولا تغترر إن قيل عصر تمدن ... فإن الذي قالوه من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس ... أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب؟

ثم أشار الشاعر إلى أن الغرب قد دفع إيطاليا للقيام بهذا الأمر فكانت له بمنزلة الكلب من الصياد . فليس الذنب ذنب إيطاليا وحدها وإنما هو ذنبهم جميعاً فقال :

وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ... ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب
فإني أرى الطليان منهم بمنزل ... يعد « وهم يُغرونه » منزل الكلب
فلولاهم لم ينقض العهد ناقض ... ولا ضاع حق في طرابلس الغرب

وقد أهاب الشاعر بالأتراك والعرب ليهبوا لنجدتها فقال :

بلاد غدت في الحرب تندب أهلها ... فتبكي وتستبكي بني الترك والعرب

ثم وجه الشاعر كلمته إلى الإمام السنوسي الذي حمل عبء الجهاد في ليبيا فدعاه إلى المشاركة في الحرب ، والوقوف مع الجيوش العثمانية لحماية ذاك البلد المسلم فقال :

فإنا لنرجو أن يقود إلى الوغى ... طلائع من خيل ومن إبل نجب

---

(١) الحرب العوان : هي التي تأتي بعد الحرب الأولى . وهي أشد الحروب وأفتكها .
(٢) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ . ص ٤٧٨ .

فيحمي بـلاد المسلمين مـن العِدا ... وينهض كشافاً لهم غمـة الخطب
فإنَّ حشا الإسلام أصبـح داميـاً ... إلى الله يشكو قلبه شدة الكـرب
فقم أيهـا الشيـخ السنوسي مدركاً ... جنودَ بني عثمان في الجبـل الغربي

ولقد توعد الشاعر الجيوش الإيطالية وقال لها : إن حرب المسلمين ليست لعباً أو طرباً :

مشيتم إلينـا معجبـين بجمعكـم ... تظنون حرب المسلمين من اللعب
سنلبسكم ثـوب المهـالـك ضافياً ... ونحملكم منها على مركب صعب

وختم الشاعر القصيدة بقوله :

فـلا تُغضبـوا الإسلام إن سيوفـه ... مواض كما قد كنَّ في سالف الحقب [1]

وللشاعر قصيدة أخرى يندب فيها القتلى ويتألم لمصابهم فيقول :[2]

لك الله يـا قتلى طرابلس الـتي ... بها حكم الطليان أسيافهم غـدرا
أدامـوا بهـا قتـل النفوس نكاية ... إلى أن أصاروا كـل بيت بهـا قبرا

ثم توعد الطليان بالثأر والانتقام فقال :

لئن ـ أيها القتلى ـ أريقت دماؤكم ... فما ذهبت عند العدا بعدكم هدرا
سنثأر حتى تسأم الحـربُ ثأرنـا ... ونقتل عن كـل امرئ أنفسا عشرا

غير أنه يعود فيبكي أسى وحزناً فيقول :

وإني لتغشاني إذا ما ذكرتكم ... لواعج حزن ترتمي في الحشا جمرا
على أن قرص الشمس عند غروبها ... يذكرني تلك الدمـاء إذا احمرا
فأبكي تجـاه الغرب والبدر لائـح ... من الشرق حتى أبكي الشمس والبدرا

(١) الحقب : الدهر .
(٢) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ . ص ٤٨٢ .

ويسخر الشاعر من الغرب الذي يدعي الحضارة والمدنية ثم يقوم باحتلال البلاد واستعمار العباد فيقول :

يقولون إن العصر عصر تمـــدن ... فما باله أمسى عن الحـق مُزْوَرّا
لقد ملك الإفرنج أرض مـراكش ... وقد ملكوا من قبلها تونس الخضرا
ففاجأنـا الطليـان من بعد ملكهم ... لكي يسلبونـا في طرابلس الأمرا
وقالـوا ألم تـأت الفرنجة تـونساً ... وهذي جيوش الإنكليز أتت مصرا
أهذا هـو العصر الـذي يدعونه ؟ ... فسحقاً له سحقاً ودفراً له دفرا [1]

وأنشأ الشاعر الحجازي إبراهيم بن حسن الأسكوبي قصيدة استهلها بتحذير الأتراك من الغرب الحاقد . وذكرهم بما يكنه الأوروبيون للمسلمين من عداء قديم فقال : [2] .

يـا آل عثمان فالمغـرور من غـرا ... بأهـل أوربـة أو عهدهم طـرا
أتأمنـون لمـوتـورين دينهم ... ألا يـروا منكم فـوق الثرى حـرا
تمـالأوا فخـذوا حذراً فإنهم ... يرون إبقاءكم بين الـورى ضرا

ثم ساق الدليل على ما يذكره بالاحتلال الإيطالي لليبيا وسكوت الأوربيين عن هذا الاحتلال فقال :

فهـذه دولـة الطليـان حين رأت ... أسطولكم ليس يغني فاجأت غدرا
وشقت البحر بالأسطول معجبـة ... تختـال تيهاً بـه مغرورة سكرى
وأنـزلت بطرابلس عساكرهـا ... فهل أُرُبَّـةُ كفت عنكم الشرا ؟
لا تحسبوا أنهم ناسون ما فعلـت ... أسلافكم بهمـو في سالف مَـرّا

ثم تحدث الشاعر عن ماضي الإسلام وفتوحاته أيام كان الغرب يتخبط في ظلمات الجهل فقال :

---

(١) سحقاً : بعداً ـ دفراً : نتناً .
(٢) الشعر الحديث في الحجاز : ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

قد جد أجدادكم جهداً بما شرعت ... شرائع الدين حتى وطّدوا الأمرا
وأهل أوربة والغرب أجمعه ... في ظلمة الجهل تستاقونهم أسرى
فتحتمو بكتاب الله أرضهمو ... فأصبحت بِكُمو مِنْ رجسهم طهرا

ثم حض الشاعر الأتراك على التمسك بالقرآن ونصرة دين الله فقال :

نعم الشفاء بقرآن الإله إذا ... قبلتموه وإلا فاسكنوا القبرا
إن تنصروا الله ينصركم فكم فئة ... قليلة غلبت أضعافها كثرا

وكان الشاعر المصري أحمد محرم أروع بياناً وأعمق عاطفة وأشد حزناً من سواه . فقد دأب ـ رحمه الله ـ على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بكل حماسة وإخلاص . فسيطرت الروح الإسلامية على شعره . وانطلق ينظم القصائد في هذه الحرب الضروس ، ويستنهض الهمم الراقدة . ويوقظ العزائم الوانية ، ويبكي ما حل بالمسلمين هناك ، ويصور حالة الجرحى وهم يئنون ويستغيثون . ويصرخ في المسلمين أن يهبوا للنجدة والبذل ، ويؤكد أن ذاك فرض ديني وواجب أخوي تحتمهما الرابطة الإسلامية . ويهاجم الغزاة المحتلين ويهزأ بهم ، ويفخر بالإسلام والمسلمين ويعلن أن المسلمين سيثأرون لقتلى هاتيك الديار . وهو لا ينسى الخلافة الإسلامية والإشادة بها في قصائده تلك ، فهي معقد الأمل . وحصن الإسلام ، ودرع المسلمين .

وقد طفق يدعو إلى وحدة الصف . وجمع الكلمة تحت راية الخلافة ، ويسأل الله أن يؤلف بين القلوب . ويجمع الصفوف ، ويعلي راية الإسلام .

بل إن الشاعر كان يأخذه العجب ممن ينعمون بالاستقرار والهدوء ويتلذذون بالنوم ، ونار الحرب مشتعلة ، والإسلام يرتجف خوفاً وحذراً فيقول : (١)

كيف القرار ونار الحرب تستعر ... والهول مضطرم البركان منفجر ؟
ويح العيون أيغشاها النعاس وقد ... شفّ الهلال عليها الحزن والسهر (٢)
يبيت يخفق من خوف ومن حذر ... حرّان يرقب ما يأتي به القدر (٣)

(١) ديوان محرم (مخطوط) زودني بصورة منه ابن الشاعر محمد جزاه الله خيراً .
(٢) شفه الهم والمرض : هزله وأوهنه .
(٣) حران : شديد العطش .

ولقد ارتاع الحطيم لما حل بأولئك المسلمين ، وفَقَدهم البيت ، وبَكَاهم الركن والحجر :

رِيَع الحطيمُ فأمسى وهو منتفض ... وأقلقت يثربَ الأحـزانُ والذِكر [١]

ويح الحجيج إذا حانت مناسكهم ... ماذا يرى طائف منهم ومعتمر ؟

أيطرب البيت أم تبكي جوانبه ... حزناً ويعول فيه الركن والحجر [٢]

ويتساءل الشاعر عن أبطال المسلمين الذين رفعوا رايات الإسلام . وحموا حماه أين هم ؟ فيقول :

أين (ابن عم رسول الله) يطفئها ... حرباً على كبدي من نارها شرر ؟

أين (اللواء) (وخيل الله) يبعثها ... عمرو ويصرخ في آثارها عمر [٣] ؟

أين المقـاديم من فِهر ومن مُضر ... ومن قريش ؟ وأين السادة الغرر [٤] ؟

بل أين الملائكة وقائدهم جبريل عليه السلام ؟ وأين تلك المعامع التي انتصر فيها الإسلام وعز ؟ وأولئك القياصرة الذين ذلوا ، إنها لذكريات لا تنسى يوم كان المسلمون مخلصين لله ذائدين عن حماه يطلبون الشهادة ويبتغون النصر من عند الله :

أين الملائكـة الأبـرار يقدمهـم ... (جبريل) يستبق الهيجا ويبتدر ؟

أين المعامـع ترفضُّ النفوس بهـا ... هلكى ، ويستن فيها النصر والظفر [٥] ؟

أين الوقائـع تهتز العروش لهـا ... رُعباً ، وتنتفض التيجان والسُّرر ؟

أين القياصر مقهورين لا صلـف ... ينأى بجانبهم عنّا ولا صُغـر [٦] ؟

ثم يستثير الشاعر الهمم للتضحية والفداء والبذل والعطاء فيقول :

---

(١) جمع ذِكْرة .

(٢) يعول : يرفع صوته بالبكاء .

(٣) يد عمرو بن العاص ، وعمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما .

(٤) المقاديم : جمع مقدام : الشجاع الجريء .

(٥) ترفض : تتفرق وتذهب ، ويستن : يعدو في نشاط ومرح .

(٦) الصلف : الإعجاب والتكبر ، والصغر : الذل والضيم .

أين الحياة وقد ضاعت محارمنا ؟ أين الكفاةُ ؟ وأين الذادة الغُـيُر ؟
أين النفـوس ترامى غير هائبـة ؟ أين العزائم تمضي ما بهـا خور ؟
أين الأكف يفيض المال مندفقـاً منها كما اندفقت وطفاء تنهمر [١] ؟
من لي بهم معشراً صيداً غطارفـة ما ضيّعوا ذمة يوماً ولا غدروا [٢] ؟
إن أدعهم لجلاء الغمرة ابتـــدروا وإن أصح فيهم مستنفراً نفـــروا

والشاعر يناشد قومه المصريين أن يهبوا لنجدة إخوتهم هناك امتثالاً لأمر ربهم فيقول :

إيه (بني مصر) إن الله يندبكـم فسارعوا قبـل أن تودي بنا الغير

ثم ينادي الشاعر ربه عز وجل ، ولا غرو فالخير كل الخير فيما قضاه ومنه العون وإليه الملجأ بعد أن ائتمر القوم بالخلافة رمز الإسلام ، وصالوا عليها وجالوا فيقول :

(لبيك) ربي ولا منٌّ عليك بهـا فمـا لنـا دون ما تبغي بنـا وطـر [٣]
(لبيك لبيك) إن الخير أجمعـه فيما قضيت وأنت العـون والـوزر [٤]
(لبيك لبيك) إن القوم قد ذعروا سِربَ الخلافة بالأمر الذي ائتمروا
صال المغير عليهـا صولة عجبـاً ما صالهـا قبلـه جنٌّ ولا بشر

ويسخر الشاعر من أولئك الغزاة وادعائهم أن العصر عصر نور وعدل وإنصاف فيقول :

يا موقد الحرب بغياً في (طرابلس) بأي عـذر إلى التاريخ تعتـــذر
أذاك والعصر عصر النور عندكم فما يكون إذا ما اسودت العُصُر ؟
أين الألى زعموا الإنصاف شرعتهم وقام قائمهم بالعـدل يفتخر ؟

(١) الوطفاء : السحابة الكثيرة الماء .
(٢) الصيد : جمع أصيد : الرجل الذي يرفع رأسه كبراً . والغطريف : السيد السخي .
(٣) الوطر : الحاجة ، أو حاجة لك فيها هم وعناية .
(٤) الوزر : الملجأ والمعقل .

ثم يتمادى في السخرية من شريعتهم التي تخذل الحق وتزدريه . وتنصر الظلم وتعليه فيقول :

يا أكثر الناس إنصافاً ومعدلـــة العدلُ يُصعـق والإنصاف يحتقر
نعم الشريعة ما سنّت حضارتكم الحق يُخذل والعدوان يَنتـــصر

ثم يعلن لهم بأن دعواهم لا تخدع أحداً . وأن اليوم الذي يلقون فيه الجزاء من المسلمين آت لا ريب فيه فيقول :

لسنا وإن عزبت أحلامنا وخـوت منا الرءوس بقول الزور تنبهـر
متى أرى الجيش والأسطول قد شفيا داء الذين زجرناهم فما ازدجروا

ويتحدى الشاعر الغزاة . ويفخر بالخلافة وجنودها فيقول : (١)

رويـداً بني روما فللحرب فتيـــة تهيـج الظُّبـى أطرابهم واللهـاذم (٢)
أولئك أبطـال الخلافـة تحتمي بأسيافهم إن داهمتهـا العظائم
هم المانعوهـا أن يُقسم فيئهـــا وأن تُستبى بيضاتهـا والمحـــارم (٣)
دعائمها الطّولى وآطامهـا العُـلى إذا أسلمت آطام أخرى الدعائـم (٤)

ثم يرفض الشاعر الإذعان لأولئك البغاة الطغاة ما دام في الترك كل مقدام جريء . وفي العرب كل بطل حازم . وما دامت الأخوة تجمعهم على الرغم من عذل العاذلين . وحسد الحاسدين فيقول :

أنذعن للباغي ونعطيـه حكمـــه وفي الترك مقدام وفي العرب حازم ؟
همـا أخـوا العزِّ الـذي دون شأوه تخر الصياصي خُشّعـاً والمخـــارم (٥)

(١) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .
(٢) الظبى : أطراف السيوف . والأطراب : جمع طرب . واللهاذم : الأسنة القواطع .
(٣) الفيء : الغنيمة . والبيضات جمع بيضة . وبيضة الملك : حوزته .
(٤) الآطام : الحصون . والأبنية المنيعة . جمع أطم .
(٥) الصياصي : الحصون . والمخارم : أنوف الجبال جمع مخرم .

أقمنا على عهدي وفاءٍ وألفةٍ فما بيننا قَالٍ ولا ثَمَّ صارم [١]
على طول ما قال الوشاةُ وخبّبت حقود الأعادي بيننا والسخائم [٢]

ثم يسخر الشاعر من أقوال الوشاة ومحاولاتهم هدم الوَحْدَة الراسخة الراسية . والأخوة الصادقة الثابتة بين العرب والأتراك فيقول :

وكيف نطيع العاذلين وترتقي إلينا وشايات العدا والنمائم ؟
أنصدع ركن الدهر من بعد مَا رَسَا وقرّت أواسيه بنا والقوائم [٣] ؟

ثم يلوم الشاعر الخارجين على الجماعة ويحذرهم من فعلتهم هذه فيقول :

ألا إن من شقّ العصا لمذمّم وإن الذي يبغي الفساد لآثم
ومن كان يأبى أن يُوالي إمامَه طواعية والاه والأنف راغم

ويزيد تقريعاً وتهديداً وتأنيباً فيقول :

سيعلم من خان الخليفة أنه مُواقعُ أمر شرّه متفاقم [٤]
أطاع هواه واستزلته فتنةٌ عضوضٌ تلوى في لُهاها الأراقم [٥]
له الويل ماذا هاج من نزواته فثار يرامي ربه ويراجم [٦] ؟

ثم يسخر من ذاك الخائن الخارج على الجماعة فيقول :

أيطلب ملكاً أم يريد خلافة تقام لها في المشعرين المواسم ؟

---

(١) القالي : المبغض . والصارم : القاطع .
(٢) خبيت : أخدعت وغشت وأفسدت . السخائم : جمع سخيمة . وهي الضغينة . والموْجدة في النفس .
(٣) أواسيه : دعائمه ومحكم أسسه . جمع آسية .
(٤) مواقعة الأمر : مخالطته . وتفاقم الأمر : عظم واشتد .
(٥) اللهى : جمع لهاة . وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم . أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم . والأراقم : جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس . أو ما فيه بياض أو سواد . أو ذكر الحيات .
(٦) المراجعة : الترامي .

ويعجب الشاعر ممن يعصي الله سبحانه . فيشق عصا الطاعة . ويخرج على الجماعة فيقول :

تباركت ربي كيف يعصيك مسلم فيوقع بالإسلام ما أنت عالم ؟
تباركت إن المسلمين كما ترى تفاريق منها مستطير ورازم [١]

ثم يدعو ربه أن يؤلف بين القلوب . ويجمع الصفوف . ويتولى المسلمين برعايته . ويتضرع إلى الله قائلاً :

فيا رب بالبيت العتيق وما ثوى بيثرب من قبر له الروح خادم
تول شعوب المسلمين برحمة تؤلف فيما بينهم وتلائم
أيرضيك ربي أن يقادوا لحتفهم قياد الأسارى أوثقتها الأداهم [٢]

وهو يرفض الغزو والاحتلال . ويستنصر بالله عز وجل على الغزاة والمحتلين :

وإنا لنأبى أن يحارب قومَنَا عدوٌ وفينا ما حيينا مسالم
وجاشوا إلينا بالقواضب والقنا سراعاً كما جاشت بحور خضارم [٣]
أولئك جند الله هل من مغالب وفيلقه الغازي فأين المقاوم ؟

وللشاعر قصيدة أخرى عنوانها « أنين الجريح في طرابلس » ومطلعها : [٤]

فزع الدجى لأنينه المتردد وبدا الصباح له بوجه أربد

وقد أبرز فيها بطولة ذلك المكلوم وحميته فقال :

هاجته يومَ الرَّوع حِمْيَةُ باسلٍ خواض أهوال الكريهة أنجد
شق الصفوف إلى الحتوف مُغامراً في الحرب يوقدها ولما تخمد

---

(١) الرازم : اللاصق بالأرض .
(٢) الأداهم : القيود جمع أدهم .
(٣) جاش البحر وغيره : اهتاج واضطرب ـ البحور الخضارم : جمع خضرم : العظيمة .
(٤) ديوان أحمد محرم (مخطوط) .

مستبسلٌ تحت العَجاج كأنه ... صَادٍ تعلّله السيوف بمورد [١]
نُصبت له الجنات تحت ظلالها ... فهفا إليها كَرّة المستشهد [٢]
ودنا فحياه النبيُّ وكبَّرت ... شهداءُ بدر حول ذاك المشهد

ثم صوره وقد خر على الأرض جريحاً والطير تناله . وهو ينادي الفوارس الشجعان لنجدته . ولقتال العدو . ويسألهم عن صاحبته وبنيه ماذا حل بهم فقال :

نفذت عليه الفيلقين قذيفةٌ ... مالت بمنكبه وطارتْ باليد
فهوى يهزُّ العرشَ رجعُ أنينه ... ويثير من حردِ المسيح وأحمد [٣]
عكفت عليه الطير تحسب أنما ... طاحت به أيدي الردى وكأن قد
باتت مناسرها تمزِّق لحمه ... حيًّا . وبات يقول هل من منجد
أين الفوارس يمنعون بقيتي ... ما لي جفيت وكيف لي بالعوّد ؟
أين البنون وكيف أمست أمهم ... ماذا أحل بها المغير المعتدي ؟

ثم كشف الشاعر عن استجابة الكماة المغاوير طلاب الشهادة من أرض الكنانة لنداء الجريح فهبوا إليه زرافات ووحدانا فقال :

لباه من أعلى الكنانة أروعٌ ... ماضي العزيمة ليس بالمتردد [٤]
مترادف النجدات منصلت القوى ... متطايح النخوات واري الأزند [٥]
لبّى الجريح ففارقته كلومُه ... ومضى فكانت وقعة لم تجحد [٦]
فسقى الحيا القوم الذين تكفلوا ... بقضاء حقٍّ للهلال مؤكد [٧]

---

(١) الصادي : الشديد العطش .
(٢) هفا إلى الأمر : أسرع ـ الكرّة : الحملة في الحرب .
(٣) الحرد : الغضب .
(٤) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو شجاعته . وقيل : الشهم الذكي الفؤاد .
(٥) مترادف النجدات : متتابعها ـ المنصلت : الشجاع الماضي في الحوائج المشمر لها ـ متطايح النخوات : متطايرها الأزند : جمع زند . كناية عن القوة ومضاء العزيمة .
(٦) الكلوم : الجروح ـ جمع كلم .
(٧) الحيا : المطر .

ووصف مشهد الوداع وقد خفقت قلوب الحساد غيظاً . ووقف جبريل عليه السلام مودعاً . ونظر الرسول عليه الصلاة والسلام مباركاً فقال :

لما وقفنا للوداع عشية ... خفقت لموقفنا قلوب الحسد
جبريل ثالثنا وعين محمد ... ترنو إلينا من بقيع الفرقد [١]
ودّعته وكأننا لقنوتنا ... وخشوع نفسينا بساحة مسجد
سِرْ ظللتك من الإله غمامة ... وكّافة لك بالمنى والأسعد [٢]

ثم تلهف الشاعر على الدماء التي أريقت ظلماً وعدواناً فقال :

لهفي ولهف المؤمنين على دم ... تهريقه أيدي الطغاة الجُحَّد
لهف القلوب العاطفات أَمَا لهم ... في الناس من ناه ولا من مرشد ؟

ولما أقبل عليه العيد هيج أساه وجدد لوعته :

يا عيد هيّجت الأسى لمعذّب ... قلق الفراش من الهموم مُسهد
يا عيد أي شجى بعثت ولوعة ... لعيوننا وقلوبنا والأكبد
عاديتنا فحرمت صفو ودادنا ... فإذا رجعت فصافنا وتودد

هذا ولقد أقام الهلال الأحمر حفلاً في مدينة دمنهور لمعاونة طرابلس في محنتها . فألقى الشاعر قصيدة أعرب فيها عن آلامه وبكى من هذه الحرب التي زرعت الموت ونشرت الرعب فقال : [٣]

الله أكبر جلّ الخطب واحتكمت ... فينا العوادي وطاشت دونها الحيل
حرب تبيت لها الأفلاك ذاهلة ... حَيْرى يُسايرها الإشفاق والوجل
قذافة بالمنايا الحمر صارخة ... ملء الفجاج حثاثاً ما بها مهل

(١) بقيع الفرقد : مقبرة بالمدينة المنورة .
(٢) وكف المطر : قطر وسال .
(٣) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

ثم ندب الشهداء والجرحى والأرامل :

يا للشهيد بدار الحرب تكنفه ... فيها الملائكةُ الأبرار والرسل [١]
يا للجريح صريعاً لا مهاد له ... إلا النجيع وإلا النار تشتعل [٢]
يا للأرامل والأيتام باكية ... تشكو الطوى وتقوم الليل تبتهل [٣]

ودعا قومه إلى البذل والعطاء فقال :

حاشا لقومي أن ترجى معونتهم ... فيبخلوا أو يعابوا بالذي بذلوا
إني أرى المال جمًّا في خزائنهم ... وما عهدت بهم بُخلاً إذا سُئلوا

وبكى الشاعر عبد الحميد الفراهي قتلى طرابلس فقال : [٤]

يا عين بَكي بالهوامع ... لا ترقأن لك المدامع
قتلى طرابلس الَّذ ... ين تطحطحت بهم القوارع [٥]

ثم هاجم الطليان فقال :

لا دين عندهم ولا ... حلم عن العدوان وازع
يبدون نصرانية ... زوراً وقد رفضوا الشرائع

ثم سخر الشاعر من المحتلين . وأكد أن الوحدة قائمة بين عنصري الأمة الإسلامية الكبيرين العرب والأتراك . وأن النصر معقود بهذا الاتحاد . وأن الخلافة الإسلامية واسطة العقد . وقطب الرحى . وخير جامع فقال :

غروا بأن البُعْد بين ... العرب والأتراك شاسع
وبأن بين قلوبنا ... صدعاً من الأضغان واسع

(١) تكنفه . تحوطه وتحفظه .
(٢) النجيع : دم الجوف .
(٣) الطوى : الجوع .
(٤) ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي : ص ١٢
(٥) يقال : طحْطَح بهم الدهر : بدّدهم وأهلكهم .

يـا ضلـة لـم يعلمـوا أن الخلافـة خـير جامع
فلنبـذلن لهـا النفـو س ودون حوزتهـا ندافـع
مـا الـترك إلا مثـل كفّ الباسل العـاري الأشاجـع
والعـرب مثـل أصابـع لا كـف إلا بالأصابـع

وحذر عبد الحليم المصري المسلمين من الغرب الكافر ، وحضّهم على الوحدة فقال : (١)

يا أيها المسلمون استيقظوا وكفى نومـاً فإن عيـون الغرب لم تـنم
هذي ممالككم تُغشى وأرضكم يسومهـا القوم سوم النّـوق للسلـم (٢)
أصبحتمو بـددا في كل ناحية كأنمـا صرتم في دولة الخـدم (٣)

ثم ناشد المسلمين أن يحفظوا دينهم وأن يحموا أوطانهم فقال :

الله في الدين إن الدين صار عـلى صحيفة المـوت متلوّا بكـل فم
إذا طرابلس ضاعت فالسلام على من في الكنانة والبيتـين والحـرم
فاستصرخـوا الله ينصركم على نفر طغى عليكم وأربـى غير محتشم

ثم تحسر الشاعر على الشرق المسلم وقد خلا من الرجال الأشاوس ، وصار هدفاً للغزاة المحتلين فقال :

ويحي على الشرق غيل لا أسود له وكم أسود بـلا غيـل ولا أجـم (٤)
ويحي على الشرق كم ناحت حمائمه وأختها هـدرت في الغرب بالنغم

ثم طفق الشاعر يدعو المصريين إلى التبرع لإخوانهم المجاهدين فقال :

يا مسلمي مصر هل برهنتم كرمـاً في أزمة الدين والدنيا على الكرم ؟

---

(١) ديوان المصري : جزء ٢ ، ص ٨٣ .
(٢) يسوم : أي يرعى ـ السلم : نبات ترعاه الإبل .
(٣) بددا : قطعا .
(٤) الغيل والأجم : مأوى الأسد وعرينه .

obeikandl.com

فأخرجوا المال من أقصى خزائنكم　　المـال لله ليس المـال لـلنَّسَم [١]

وخاطب الشاعر المسلمين في قصيدة أخرى فقال : [٢]

بني الإسلام من عرب وتـرك　　أيصبح عرشكم من غير مُلك
ويجري بحركم من غير فُلك　　ويُرعى بركم من غـير حـام

ثم نعى على المسلمين قاطبة فرقتهم فقال :

لقد قتـل الغـرور المسلمينـا　　فبانـوا في الرُّبى متفرقينـا
تقلبهـم أكـف الحاكمينـا　　كتقليب الشواء عـلى الضرام

ثم خاطب طرابلس الغرب وبشّرها فقال :

سلام يـا طـرابـلس سلام　　تبلغـه عـن النيـل الذِّمـام
دعوتِ فـذاك جيش الترك لبـى　　وأشبع جوعة الأعداء ضربـا

ونظم الشاعر قصيدة في رأس سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ م نعى فيها طرابلس الغرب فقال : [٣]

يا أرض برقـة من دار ومـزدرع　　تسقين بالدم أم تسقين بالمطـر
أمست بطاحك خضباء البقاع فما　　تفرق العين بين المـاء والمـدر

ثم عرض صوراً من جرائم الطليان فقال :

وكم عجـوز إذا أَنْزَلْت بردتهـا　　أنزلتهـا من كتاب حافـل السـير [٤]
سقى العفـاف محياها وما برحت　　في هيبة الشيب تحكي البكر في الخفر

---

(١) النسم : المخلوقات .
(٢) ديوان المصري : جزء ٢ . ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ١٠٤ .
(٤) البُردة : كساء مُخطط يلتحفُ به .

oberkandi.com

مصونة العرض جال الطهر في دمها ... كما يجول نقي الماء في الزهر
سطوا بها واستباحوا من كرامتها ... فأصبحت عبرة تتلى من العبر
وكم رضيع كأن المهد ضنّ به ... كما يضن بخيل القوم بالدرر
أصلوه ناراً وفاتوا لحمه قطعاً ... تنوشها الطير بين الورد والصدر

ثم حض الشاعر الجيش العثماني أن يؤدب أولئك البغاة فقال :

يا سيف عثمان أدب أمة لعبت ... دوراً من الجد في دور من الهذَر
ويا جنود بني عثمان ما برحت ... سيوفكم بين مبتل ومستعر

ثم نعت الشاعر الجيش العثماني بجليل الصفات فقال :

جند إذا طلبوا خفوا . وإن سلبوا ... عفوا . وإن غلبوا كفوا عن الفخر

ثانياً : الحرب البلقانية

في سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م تحالفت دول البلقان ضد الدولة العثمانية وأعلنت الحرب عليها وقد ساعدها على هذا التحالف « أن ثوار تركيا الفتاة الذين استولوا على مقاليد الحكم في تركيا . لم يكونوا محبوبين بين شعوب البلقان . فاتباعهم لسياسة التتريك وفرضهم إياها ، وعملهم على إقامة حكومة مركزية قوية أدى إلى زيادة كراهية دول البلقان لهم ... . وكان لروسيا أثر كبير في قيام ذلك التحالف البلقاني ... . وكذلك بريطانيا وفرنسا » [1] .

ولقد عقد في بداية الأمر مؤتمر في لندن لتسوية ذلك الخلاف انتهى إلى عدة قرارات أهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل . ولكن تلك القرارات لم تنفذ . فقد سقطت لوزارة التركية التي أقرتها . وجاءت وزارة جديدة رفضت تلك القرارات . وقادت الأمة نحو القتال . وحققت انتصارات في بداية الأمر . فقامت في مصر المظاهرات فرحاً وابتهاجاً

(١) ـ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .
ـ وتاريخ الشعوب الإسلامية : ص ١ ـ ٦ .
ـ يقول الأمير شكيب أرسلان : إن الدول البلقانية تحالفت تحالفت على الدولة العثمانية . وكان تحالفها بواسطة قيصر الروسية وتحت كفالته فهو الذي نظم شتات دول البلقان وشجعها على محاربة تركيا وقد لقاه الله جزاءه بعد الحرب العامة فقتله البلاشفة شر قتلة (شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٧٤) .

بهذا النصر [١] . وعقدت اللجان والجمعيات في مصر لجمع التبرعات . وعم الفرح والسرور [٢] جميع سكان البلاد الإسلامية لأنهم شعروا بأن دول الغرب وراء هذه المطالب . وأنها تريد أن توهن من قوى دولتهم .

وقد حض الشعراء الناس على الجهاد . ودعوهم إلى الالتفاف حول راية الخلافة العثمانية . ومد يد العون لها ولمسلمي تلك الديار . وعزّ عليهم أن ينسلخ عن الدولة العثمانية بعض أجزائها . وأن تتحالف الدول النصرانية ضدها وهي الدولة المسلمة . والإسلام يربطهم بها ويحتم عليهم نصرتها .

وأخذ الشعراء يحثون الناس على التبرع . ويندبونهم إليه ويصورون لهم حالة الجرحى وهم يرقبون حنانهم والأيتام الذين ينتظرون عطفهم . فلنستمع إلى الشاعر محمد بن محمود : [٣]

يا جيرة الفيوم هذا وقتكم ... أهل المكارم تأنف التسآلا
رفقاً بإخوان لكم دهمتهم ... نوب الحروب وكم تجر وبالا
ما بين جرحى يرقبون حنانكم ... عطفاً . وأيتام إزاء ثكالى

ويحث الشاعر الناس على المزيد من العطاء ويرغبهم فيه فيقول :

ولتقرضوا الرحمن جل عطاؤه ... قرضاً يضاعفه لكم أمثالا
ما أجمل الإنسان يدفع فاقة ... تودي ويكسو عارياً سربالا
ما أجمل الإنسان عند مجاهد ... لله يبرئ جرحه القتالا

ويتفاءل بالنصر في قصيدة أخرى فيقول : [٤]

يا جيش عثمان لا تحفل بجمعهم ... وإن تكن ظاهرته سائر الأمم
إني لمحت هلال النصر يقدمكم ... فاتبع خطاه كريماً ثابت القدم
نعم الإله ظهيراً ليس يخذلكم ... والشرق أجمع من عرب ومن عجم

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ١ . ص ٥٦ .
(٢) الشعر العراقي الحديث : ص ٥٨ .
(٣) ديوان ابن محمود : جزء ٢ . ص ١١٠ .
(٤) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ١٠٠ .

والشاعر يبكي مسلمي تلك الديار في قصيدة ثالثة ، ويصور ما حل بهم ليثير مشاعر النخوة في نفوس المسلمين ، ويهزُّ أريحتَهم ليمدوا يد العون لهم فيقول : [١]

ماذا جنى مسلمو البلقان حين غدوا ... يستصرخون فلا يلفون مستمعا
والسيف والنار فيهم يفتكان معاً ... فتكاً تسيل به أرواحهم دفعا
يا ويحها أربع البلقان كم شهدت ... من الفظائع ما ضاقت به ذرعا
أضحت مخضبة الأرجاء شارقة ... وإنما بدم الإسلام قد همعا [٢]

ويصور الشاعر حالة المسلمين وحزنهم وجزعهم على البلقان ، ذلك لأن الخطب خطبهم والمصيبة مصيبتهم فيقول :

لقد بكى لبكاك المسلمون جوى ... وما ثناهم نزوح الدار أو منعا
إذ كان خطبك خطب الكل قد نكبوا ... فيه وقد فجع الإسلام ما فجعا
حزن أناخ على الإسلام كلكله ... فناء بالعبء إعياء ومضطلعا
وبات يهذي كمحموم تعاوده ... حمّاه أو شبه من قد مسّ أو صرعا

ثم أشاد الشاعر بأنور الترك الذي تولى رئاسة [٣] الحكومة التركية ورفض التخلي عن أغنب الأراضي التركية وبارك جهاده فقال :

يا أنور الترك نعم الفأل تسمية ... قل للثعالب قد هيجتم السبعا
ثأراً لقومك لا تأخذك مرحمةً ... في الظالمين ورو السيف والنطعا
وللمساجد أمسى بعضها خربا ... والبعض واحر قلبي قد غدا بيعا
وللدماء التي قد أهرقت هدراً ... وللعفاف الذي قد بات مفترعا
وللهلال الذي قد بات منتكساً ... دون الصليب الذي من فوقه وضعا

ثم وردت الأنباء بتقهقر الجيوش العثمانية وهزيمتهما وسقوط مدينة أدرنة . وتقدم

---

(١) ديوان ابن محمود : جزء ٢ . ص ١٠٣ ـ ١٠٦ .
(٢) الهُمُوع (بالضم) : السيلان ـ الهامع : السائل . وقد همعت عينه تهْمع همْعا وهُمُوعا وهَمَعانا . أي دمعت .
(٣) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : ص ٣٤٣ .

الجيوش البلقانية نحو الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، ففزع المسلمون لهذا الخطب فزعاً وصفه العالم الأمريكي لوثروب ستودارد فقال : « لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة في البلقان أجفل العالم الإسلامي للخطب أيّما إجفال وبلغت صرخاته عنان السماء » .

فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويثير وزراء بريطانيا العصبية النصرانية على الإسلام ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب على قبة مسجد « أيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على المسجد الأقصى في بيت المقدس .

أيها المؤمنون الإخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . فإن الواجب المقدس يدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد للذود عن حياض الإسلام والمسلمين » [١] .

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « إننا ننادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركية اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء العظيم [٢] » .

هذا ولقد قامت الجيوش البلقانية بالتنكيل بالمسلمين وارتكبت أبشع أنواع الجرائم حتى فَرّ أكثر المسلمين من ديارهم ، وبلغ عدد الذين هاجروا من مسلمي البلقان بعد أن سمعوا ما حلّ بإخوانهم على الحدود مائة وخمسين ألف نسمة دخلوا الأستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس على كثرتها . وتسابق المسلمون في إرسال الإعانات لهؤلاء المنكوبين ، وذكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان من أعضاء اللجنة التي توزع الإعانات على المهاجرين [٣] .

ولقد أسهم الشعراء في هذه الحرب بشعرهم فطفقوا يدعون المسلمين إلى الوقوف معهم ، ومد يد العون لهم ، ويحذرون النامس من هذه الحرب الصليبية الضروس ضد الإسلام والمسلمين ، ويبكون مجد الإسلام في هاتيك الديار التي تعرضت لتلك المذابح .

وقد سلكوا شتى الوسائل لإثارة حماسة الشعوب الإسلامية ، وتحريك نخوة المسلمين ليتحدوا ويتكاتفوا ضد القوى العالمية الحاقدة عليهم ، الطامعة في بلادهم ، الكارهة لدينهم .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) المصدر السابق : جزء ١ ، ص ٣١٣ .

(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٧٥ .

والتي بلغ من جرأتها أن اقترح أحد مفكريها حلاً للمسألة الإسلامية يقوم على القضاء على المسلمين ونبش ضريح [١] الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس .

ومن أروع القصائد التي قيلت آنذاك أندلسية شوقي [٢] .

فقد ذكرته هذه الحرب وأهوالها بحالة الأندلس بالأمس . وما حل بأهلها . فما أشبه الليلة بالبارحة فقال :

يـا أخت أنـدلس عـليك سلام ... هوت الخـلافـة عنك والإسلام
نزل الهلال عـن السمـاء فليتهـا ... طُويت وعم العـالمين ظـلام
جرحـان تمضي الأمتـان عليهما ... هـذا يسيل وذاك لا يلتـام
بكمـا أصيب المسلمون وفيكما ... دفن اليراع وغُيّب الصمصـام

ثم تساءل عن المسلمين وحالتهم هناك فقال :

مقـدونيـا والمسلمون عشيرة ... كيف الخؤولـة فيك والأعمـام؟
أترينهم هـانوا . وكـان بعزهـم ... وعـلوهم يتخـايل الإسلام ؟

ثم خاطب الشاعر الانهزاميين الذين يدسون رؤوسهم في الرمال ويدعون أن البلقان مصدر متاعب للدولة فقال :

زعموكِ همّـاً للخـلافـة ناصبـاً ... وهل الممالـك راحة ومنـام ؟
ويقـول قـوم كنت أشأم مـورد ... وأراك سائغـة عليك زحـام
ويراكِ داءَ الملك ناس جهـالـة ... بالملك مـنهم عـلةٌ وسقـام
لو آثروا الإصلاح كنتِ لعرشهم ... رُكنـا عـلى هـام النجوم يُقـام

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : جزء ١ . ص ٨٠١ .

(٢) .. الشوقيات : جزء ١ . ص ٢٨٧ ـ ٢٩٥ .

ـ شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٧٤ . يقول الأمير شكيب أرسلان : كانت جيوش البلقان ترتكب من قتل الأهالي الوادعين واستباحة أعراض النساء ذوات الصون والستر ونهب الأموال وإهانة شعائر دين الإسلام ما لم يقع نظيره إلا في الأندلس . ولذلك سمى شوقي البلقان بالأندلس الجديدة .

ثم قدم صوراً من الجرائم التي ارتكبتها الجيوش الغازية هناك فقال :

كم مرضع في حجر نعمته غـدا ... ولـه على حد السيوف فطـام
وصبيـة هتكت خميلـة طهرها ... وتنـاثرت عـن نوره الأكمـام
وأخي ثمـانين استبيـح وقـاره ... لم يُغن عنـه الضعفُ والأعوام
وجريح حرب ظـامئ وأدوه لم ... يعطفهـم جـرح دم وأوام [١]
ومهـاجرين تنكـرت أوطـانهم ... ضلوا السبيل مـن الذهول وهاموا
السيف إن ركبوا الفـرار سبيلهـم ... والنطـع إن طلبـوا القرار مقـام [٢]
يتلفتـون مـودعـين ديـارهم ... واللحـظ مـاء . والـديـار ضرام [٣]

والتفت شوقي نحو الأتراك فنصحهم بالوئام وعذلهم على الانقسام فقال :

يـا أمـة بفروق فـرَّق بينهـم ... قـدرٌ تطيش إذا أتـى الأحـلام [٤]
فيم التخاذل بينـكم ووراءكـم ... أمم تضـاع حقوقهـا وتضـام [٥]
لا يأخذن على العواقب بعضكـم ... بعضاً . فقِدْماً جارت الأحكـام

ثم بكى صوت المؤذنين الذي خبا ، والمساجد التي عطلت وهجرت فقال :

صبراً أدرنـة كـل ملـك زائـل ... يـومـاً ويبقى المـالك العلام
خفتَ الأذان فما عليك موحـد ... يسعى . ولا الجمـع الحسان تقام [٦]
وخبت مساجدكن نـوراً جـامعاً ... تمشـي إليـه الأسد والآرام [٧]

ولشكيب أرسلان قصيدة حذر فيها الأمم البلقانية من غضبة المسلمين ، وأكد أن الوحدة

(١) الأوام : العطش ودوار الرأس .
(٢) النطع : بساط من الجلد يفرش لمن يضرب عنقه .
(٣) الديار ضرام : مشتعلة نارا .
(٤) فروق : الأستانة ـ الأحلام : العقول .
(٥) التخاذل : التدابر وأن يخذل بعضهم بعضاً .
(٦) خفت : سكن وانقطع .
(٧) خبت : سكنت . الآرام : الظبا .

بين عنصري الأمة الإسلامية الكبيرين الترك والعرب قائمة فقال : [١]

فمن مبلغ البلغـار أنـا إلى الوغى ... وإخواننـا الأتراك نزحف توأما
وإن جميع العرب والترك إخوة ... عليهم إليهم يبتغون تقـدمـا
وليس يزال الـعرب والترك أمـة ... حنيفيـة بيضـاء لن تتقسمـا
وقولـوا لهم بـانت سعـاد فلا يـزل ... فـؤادكمو صبـا عليها متيمـا
فلا يطمعنكم في أدرنـة مطمـع ... ولا تفتحوا في شأنهـا أبداً فمـا

ثم بيّن الشاعر مدى تعلق المسلمين بأدرنة وأنها عندهم مثل مكة المكرمة ، وعَرَّض بالمشطين من الداخل فقال :

أدرنة صارت عندنا تِلو مكـة ... ومـاء المريج اليوم أشبـه زمزما
ستلبث عثمانيـة رغم أنفكـم ... وأنف الألى منـا يصيحون لـومّـا

ولقد أنشأ الرصافي في هذه الحرب أكثر من قصيدة بعد أن هزته أحداثها وعاش معها منذ البداية .

فعندما اضطربت بلاد البلقان وعزم السلطان محمد رشاد على زيارتها لتهدئة الأمور نظم الشاعر قصيدة سخر فيها من حكومات البلقان وآمالها فقال : [٢]

قل للحكومات في البلقان هل علقت ... آمالكم من مواعيـد بـإنجـاز
إن الذي تضمرون اليوم من طمع ... أمسى لأشعب يعزو مثله العـازى
لم تعرفوا مـذ لمستم عرق نخوتنـا ... إذ قـد لمستم بكف ذات قفـاز
إنـا لنعرف لغزاً في سيـاستكم ... ومـا السياسة إلا بيت ألغـاز

ثم وصف زيارة السلطان بأنها زيارة عفو وإحسان وأن السلطان لو شاء أن يأخذهم بالقوة لفعل :

---

(١) ديوان الأمير شكيب أرسلان : ص ٩٩ .
(٢) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ ، ص ٤١١ .

يا أيها الملك السامي بحكمته ... والمبدل الناس من ذل بإعزاز
غزوت غزو سلام دون غايته ... غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
ملكت بالعفو والإحسان أفئدة ... كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم ... بصارم لنواصي القوم جزاز
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم ... والعفو أفضل ما يجزي به الجازي

وبعد أن انهارت المفاوضات وتقررت الحرب وشرع الفريقان في الاستعداد لها نظم الشاعر قصيدة أشاد فيها بالجيش الإسلامي وقدرته على تشتيت شمل الأعداء وتمزيق جمعهم فقال : (١)

نحن للحرب العوان ... ولإدراك الأماني
لا نعد العُرس إلا ... يوم ضرب وطعان
نحن لا نفخر إلا ... بلسان من سنان
هل بنينا المجد إلا ... بالحسام الهندواني

وبينما كان الشاعر في طربه وزهوه وتغنيه بالجيوش الإسلامية وردت الأنباء بهزيمتها ، فحزن أشد الحزن . ونظم قصيدتين يندب فيها تلك البلاد التي ضاعت من أيدي المسلمين ، حيث يقول في قصيدته التي نظمها عقب ورود الأنباء بهزيمة « لولا بوغاز » (٢)

يا موطناً ما انتضيناها مُهنّدة ... إلا لردع الأعادي عن إهانته
ولا ركبنا منايانا مُطهمة ... إلا لنكسب عزاً من صيانته

ولقد ألقى الرصافي تبعة ذاك الانهزام ومسؤوليته على قائد الجيش فقال :

تالله لم ينكسر في الحرب عسكرنا ... من أَجْلِ قِلَّتِهِ أو من جبَانته
وكيف وهو تفوق الطيِّس كثرته ... وتستعير الرواسي من رزانته (٣) ؟

(١) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ . ص ٤٩٤ .
(٢) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ٤٨٧ .
(٣) الطيس : هو الشيء الكثير من تراب ورمل .

لكن قائده ما كان يمأنه ... ولا يبالي بأمر من معانته [١]
حتى لقد نفدت في الحرب عِينُه ... بحيث لم يبق سهم في كنانته [٢]

ثم أكد بأن الجيش أقدم واستبسل ولكن قائده خان فحلت الهزيمة بالجيش [٣] :

ولا استكان لهول الحرب من فرق ... بل كان يفرق من هول استكانته
فخاض غمرَ المنايا صابراً وأبى ... على الفرار انغماراً في مهانته
ليس الفرار لجند المسلمين ألا ... إن الفرار لكفر في ديانته
وكيف يغلب جيش كان قائده ... يحفه بجيوش من خيانته ؟
فالجيش تلتهم النيران أنفسه ... وقائد الجيش لاَهٍ في مجانته

ثم تلهف على الجيش المسلم الذي هلك ولم يحقق آماله وأمانيه فقال :

لهفي على الجيش جيش المسلمين فقد ... قضى ولم يقض شيئاً من لبانته

ولقد بكى الشاعر أدرنة في قصيدة أخرى وتوجع عليها وندب المساجد والمصلين وأبدى أساه ولوعته فقال : [٤]

أدرنةُ مهلاً فإن الظبى ... سترعى لك العهد والموثقا
وداعاً لمغناك زاهي الربى ... وداعاً ولكن إلى الملتقى
عزاء لمسجدك الجامع ... أفارق محرابه المنبرا
وهل في مُصلاه من راكع ... يجيب المؤذن إن كبرا

وقد بلغت منه الفجيعة مبلغها فرثى أدرنة للنبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه فقال :

فيا لسقوطك من فاجع ... به فجع الدهر أُمَّ القرى

---

(١) يمأنه : أي يقوته ـ والمعانة : العون كالمعونة .
(٢) العينة (بالكسر) : مادة الحرب .
(٣) كان القائد آنذاك : ناظم باشا . قتله الاتحاديون في الآستانة .
(٤) ديوان الرصافي : ص ٤٨٥ .

وقـــبر النبـــوة في يـثربـا ومثوى ضجيعيه مـثوى التقـى
ومـن في البقيع ومـن في قُبَـا ومن شهـدوا الفتح والخندقـا

ولقد استنهض الشاعر الهمم للذود عن الإسلام والمسلمين فقال :

أرى الـدهر أنهض كـل العـدا على حين قد قعد المسلمون
فكـم جرّعونـا كؤوس الـردى ونحن عـلى كيدهم صـابرون
أيحسن يـا قـوم أن نقعـدا وقـد آن أن ينهض القـاعـدون

ثم أكد الرصافي أن الغرب انكشفت حقيقته ، وبان زيفه وباطله ، ولم يعد بعد هذه الحرب إلا السيف حكماً بيننا وبينه فقال :

دع الـغرب ينـعم في بـالـه وإن لـقي الشرق منـه الكـروب
ولا تسألنـه بـأفعـالـه فعهـد التمدن عهـد كـذوب
فنحن اغتررنـا بـأقـوالـه ولكننـا بعد هـذي الـحروب
سنـأبـى عليـه أشد الإبـاء فإما الفنـاء وإما البقـا
ونركب مـن عـزمنـا مركبـا ونـرقى وإن صعب المـرتقـى

ولقد طفق الرصافي ينظم القصائد تلو القصائد في مهاجمة الغرب ، فخصّ ولسون الرئيس الأمريكي آنذاك بقصيدة هاجمه فيها وسخر من أفعاله التي تكذب أقواله فقال : (١)

قال قولاً بـه استحق احترامـا وتعـداه فـاستحق مـلامـا
رجل قـد تنكب الحـق قوسا ومـن البُطـل ظـل يرمي سهامـا (٢)
كـان منـه المقـال نـوراً فلما حـان حـين الفعال كان ظلاما

ثم تساءل الشاعر عن كنه الحق الذي يدعيه ولسون ويزعمه فقال :

(١) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ ، ص ٤٣٣ .
(٢) تنكب القوس : وضعها على منكبه استعدادا للحرب .

فهل الحق عنده في سوى الغر ... ب حقير أقل من أن يحامى [١] ؟
أم هل الشرق وحده في الأقا ... ليم مباح أن يستبى ويُضاما [٢] ؟
أم هل القوم عاهدوا الله في أن ... لا يُراعوا للمسلمين ذماما [٣] ؟
ما لهم أرهقوا بني الشرق ظلما ... وعلى الترك أشلوا الأرواما [٤] ؟
فاستباحوا حريم أزمير نهبا ... واستحلوا من الدماء حراما
حيث جاسوا خلالها بجنود ... ركبت في عتوها الآثاما

ثم شكى الرصافي حالة المسلمين وما يلقونه من الغرب فقال :

أيها المسلمون لستم من الغر ... ب بحال تستوجبون احتراما
إنما أنتم لدى الغرب قوم ... خلقوا عن سوى الشرور نياما
فاذا ما وسعتم الناس حلما ... عده الغرب شرة وعُراما [٥]
وإذا ما ملأتم الأرض عدلا ... عد جوراً أو مفخراً عد ذاما
وإذا ما فعلتم الخير يوما ... حسبوه جناية وأثاما
وإذا زلة لكم دفن الدهـ ... ـر وأملوا بنبشها الأقلاما
وإذا ما افترى عليكم عدو ... أيدوه وصدقوا الأوهاما
وإذا ما جنى عليكم أناس ... سكتوا عنهم ومروا كراما

ثم أشار إلى جرائم الغرب بالبلقان وعاتب العرب فقال :

كم بأرض البلقان منكم قتيل ... وأيامى مضاعة ويتامى
نثر الظالمون في الأرض منهم ... جثثاً تملأ الفضاء وهاما
لو أتينا تلك البلاد رأينا اليو ... م منهم جماجما وعظاما.

---

(١) يحمي : أي يدافع عنه .
(٢) يسبى : أي يصير سبياً ـ ويضام : يذل .
(٣) الذمام : الذمة والعهد .
(٤) أشلوا : من أشلى الكلب على الصيد : سلط عليه ليصيده .
(٥) عراماً : عتواً وطغياناً .

ما نضا للدفاع عنهم بنو العر ب حساما ولا أحاروا كلاما
إن تكن هذه السياسة عدلا فإلى الظلم نشتكي الآلاما

وختم الشاعر القصيدة بالترحم على المسلمين الذين لا ذنب لهم إلا الإسلام فقال :

رحم الله أمة أصبح الـ ـغر ب يرى كل ذنبها الإسلاما

أما محمد عبد المطلب فقد هزئ من دول البلقان المتحالفة ، وأكد أن الإسلام لا يزال صلب العود قوي الشكيمة فقال : (١)

فإن حسبوا الإسلام لانت قناته فما زال دين الله صلب المعاجم (٢)
عدوا طورهم فاستضعفوا ليث غابه وعاثوا فساداً في القرى والعواصم (٣)

وقد عمد الشاعر إلى تحريك النخوة الإسلامية في نفوس المسلمين ليمدوا يد العون لإخوانهم الذين يلقون العذاب والأسى .

ثم عرض صوراً للأعمال الوحشية التي ارتكبتها الجيوش البلقانية الحاقدة فقال :

يسومون ضَعفاها العذاب مبرِّحاً ويغلون بغياً في انتهاك المحارم
فمن حُرة تبكي عفافا هفت به يد البغي من تلك الأكف الظوالم
إذا صرخت في الخدر لم تر ناصراً وإن تستغث لم تلق رحمة راحم
وطفلٍ يعاني سكرة الموت في الظبى ويكرع من كأس الردى غير هائم (٤)
إذا ما بكته أمه فتكت بها ذُبابة هنديّ من البيض صارم
بواك يذيب القلب رجع أنينها وتجري لها حزناً دموع الغمائم

ثم توعد الشاعر أعداء المسلمين بالويل والثأر والانتقام . فهم لم يحفظوا عهداً ولم يرعوا حرمة . واستعمل ضمير المتكلم ليؤكد انتماءه الإسلامي فقال :

(١) ديوان عبد المطلب : ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ .
(٢) المعاجم : مواضع عجم الشيء أي اختباره .
(٣) الطور : الحد والحال التي تليق بهم .
(٤) الهائم : العطشان .

تعـامى بنو البلقان عن منهج النهى ... لخوض عباب الفتنة المتلاطم
وأغرى بها أنا حفظنـا عهودهـم ... ولا عهد إلا للخفاف الصوارم [١]
علينـا عهود للمواضي قـديمـة ... نفيها على رغم الأنوف الرواغم [٢]
إذا وردت هـام الملوك أكفنـا ... بهن ظماء عـدن غـير هوائـم [٣]
أبينـا عليها أن يقـر قـرارهـا ... على تِرة كلا ولا ضيم ضائم [٤]

ويأتي العيد على الشاعر المصري أحمد الكاشف بعد هذه النكبة . فيثير أشجانه ويؤجج أحزانه وآلامه فيقول : [٥]

بأيـة عيـد أنت يا عيـد عـائـد ... تفيض تباريحـا لنا أم شمائـلا
جزعت مـن الأنبـاء حتى كأنني ... ألاقي من الأنبـاء جيشاً مقـاتلا

ويندب الجيش المهزوم إلى البيت الحرام . وإلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول :

وهل بلغ البيت الحرام حديثهـم ... وهال حجيجـا حولـه وقبائـلا
وهل علم القبر الكريم بما جرى ... فقد بـات مهتز الجوانب سائلا

ويفديه بروحه . ويقرر أنها حرب صليبية . ويلوم المسلمين على تخلفهم عن نصرة القوات العثمانية المسلمة فيقول :

حيـاتي لمغلوبـين عـانوا مكـايدا ... صليبيـة قبل الـوغى وحبـائـلا
إذا استنجـدوا بالمسلمـين تخلـفوا ... وكم وجدوا من قوم عيسى مخاتلا

ويدعو العثمانيين إلى الاتعاظ والعبرة بما حصل :

فيا آل عثمان اتعـاظـا فإنهـا ... تجاريب أيقظن الشعوب الغوافلا

---

(١) الخفاف : السيوف ـ الصوارم : القواطع .
(٢) المواضي : السيوف .
(٣) هوائم : عطاش .
(٤) الترة : الثأر .
(٥) ديوان الكاشف : جزء ٢ . ص ٢٤ ـ ٢٥ .

ويزهد الشاعر في الدنيا ويمقتها إذا لم ير الجيوش الإسلامية وهي تذب عن الإسلام وتحمي معاقله ، وتقهر جحافل الشرك والضلال فيقول :

عفـاء على الدنيـا إذا بتّ لا أرى ... جحافل للإسلام تـردي جحـافلا

ويتساءل في قصيدة أخرى [١] عن طبيعة هذه الحرب ودوافعها فيقول :

صليبيـــة يا قوم أم عنـصريـــة ... حروبكـــم والدين هذا أم الشرك
وجيرانكم أعداؤكم أم حمـاتكم ... وأعـداء عيسى المسلمون أم الترك
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا ؟ ... وهل كان من أخلاقه البغي والفتك ؟
أقر بـأضغان النفوس ملوككـم ... ومن كان في شك فقد ذهب الشك

ويتحدى القوى الغازية ، ويؤكد أن الشرق المسلم أقوى منهم ، وأن الخلافة التي يكيدون لها ، هي رمز الوحدة والقوة وهي أثبت وأصلد من الجبال الراسية فيقول :

أفي كل بـر يحمل الشر جحفل ... وفي كل بحر يرتمي بالأذى فلك
تعالوا فما الخطب الذي توسعونه ... على الشر إلا محشر لكم ضنك
شكاكم إلى أشياعكم فتنكـروا ... فعـاد إلى أسيـافه والقنا يشكو
تخر الجبـال الراسيـات عليكم ... ولا تنقضي هذي الخلافة والملك

والشاعر يرى أن هذه الحرب حرب صليبية ضد الإسلام . وأن على المسلمين أن يتحدوا ويتكاتفوا ليردوا طمع الطامعين ، وحقد الحاقدين .

وتبلغ به الحمية الدينية ، والإخلاص للدولة العثمانية المسلمة أن يفديها بروحه وهي أعز ما يملك .

وقد ذكر في مقدمة ديوانه : أنه كان غيوراً [٢] على الملة منصرفاً إلى الدولة . وقد عبر عن مشاعره وعواطفه وأحاسيسه حيال الدولة العثمانية ، وما يكنه لها من حب عميق وولاء صادق في قصيدته التي يقول فيها : [٣]

(١) ديوان الكاشف : جزء ٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢) المصدر السابق : جزء ١ ، المقدمة صفحة م .
(٣) المصدر السابق : جزء ٢ ، ص ٢٣ .

خطوبكم يـا آل عثمان جمـــة ولكنكم أقـــوى علـيها وأقـدر
توزع قلـبي حبكم وهو غـالب وحقد عـلى أعـدائكم يتسعـر
ولو كان لي بـأس على قدر قدرتي لكـان لكم منه حصون وعسكـر

وقد بلغ بالشاعر الحزن على الدولة العثمانية بعد أن انهزمت أنه كاد يهلك حزناً وجزعاً عليها فقال :

أجود بروحي غـير أن سبيلهـــا إليكم كمـا يـأبى الهـوى متعذر
أتجري دمائي في مثار الأسى سدى وميـدانكم أولى بهـن وأجـدر
ثويت وأغـلالي عـليَّ شديـــدة ومـــالي إلا أدمـع تتحـــدر

ثم حض الشاعر المسلمين على أن يتدبروا أمورهم . ويجمعوا صفوفهم ليؤدبوا الطغاة الذين أجرموا بحقهم فقال :

لقد آن أن يجزى الطغاة بما جنوا وآن لأهل الشرق أن يتدبـــروا

هذا ولقد عمد بعض الشعراء إلى استثارة الحمية والغيرة في نفوس المسلمين بذكر لنساء اللواتي هتكت أعراضهن . وذلك لتحريك المشاعر وإثارة العواطف . ومَدِّ يد العون لإخوانهم المجاهدين فالمسلم غيور على دينه وعرضه .

ولقد كان الشاعر الكاظمي واحداً من أولئك الشعراء الذين أخذوا بهذا اللون من الشعر حيث دعا إلى الذود عن أعراض النساء المخدرات فقال : (١)

ومستصرخات بالحمى تستفزكم لصون الحمى من عاديات المظالم
مخافة أن يسطى عـلى حرمـاتهـا وهتك الهوادي دون هتك المحارم
إذا ما تشاكت قلت في الخدر نائح يشاركه في الدوح نـوح الحـمائم
وان ما أريعت قلت : سرب من القطا أُريـع . وسرب من ظباء الصرائم (٢)
حرائـر لم يلمح لهـا الظن ريبـــة ولم يدن من أذيـالها وهم واهم

(١) ديوان الكاظمي : جزء ١ . ص ١١١ .
(٢) الصرائم : جمع صريمة . وهي قطعة من معظم الرمل .

وأشار الشاعر إلى الاستقرار والأمن اللذين تتنعم بهما البلاد الإسلامية في ظل حماتها العثمانيين . وما تعرضت له تلك البلاد من هجمات حاقدة . ودعا القائمين على الأمر إلى اليقظة والحذر من الأعداء الذين يتربصون بالبلاد السوء فقال :

بكم يا حماة الدين قد أمن الحمى ... وقد هجموا شر المغير المهاجم
خذوا الحذر من نائي التخوم ونبهوا ... ظباكم إلى كيد العدو المتاخم
أريشوا سهام الموت واستهدفوا لها ... قلوباً براها الحقد غير رواحم

ثم أبدى الشاعر ألمه المرير من تطاول دول البلقان على الدولة العثمانية فقال :

أرى دول البلقان طالت أنوفها ... على دولة آثارها في المخاطم
بأيمانها جاءت لثل عروشها ... ودك مباني عزها والمعالم

وقد بلغ بالشاعر الأسى أنه جعل ينادي عثمان مؤسس الدولة العثمانية ليقوم من قبره ويرد الظالمين البغاة فقال :

أعثمان قم وانظر لملكك واحتفظ ... بحقك واصدم دونه كل صادم
إذا كان تحت الترب طرفك نائماً ... فعزمك فوق الترب ليس بنائم
يجرده أبناؤك السادة الألى ... تدين لهم شُمَّ الملوك القماقم
فلا تخش من جيش العدو وجنده ... فجندك في الهيجاء أسد الملاحم

ثم عاد يفخر بالجيش العثماني . ويصفه بأنه جيش أحمدي شعاره الله أكبر تحفه العناية الإلهية ويصحبه النصر الرباني وكأن الصحابة قائمون على رعايته فيقول :

وجندك في الهيجاء أم جند أحمد ... تشيعه هيم القلوب الهوائم
إذا لغطت تلك النواقيس كبروا ... وعاد صدى تسبيحهم كالزمازم
جنود كأن الله قال لها : ارتقي ... إليّ ببيض الهند لا بالسلالم
كأنَّ عليا قائم في صفوفها ... يقوِّم معوجاتها بالقوائم

ويعتبر الكاظمي خصوم الدولة العثمانية خصوماً للمسلمين أجمع فيقول :

حماة حمى الإسلام إن خصومكم ... خصوم جميع المسلمين الأكارم

ويشير إلى تحالف القوى العالمية ضد المسلمين فيقول :

تألف أهل العزم في كل بقعـــة وقـد عقروا الأضغان عقر السوائم
وهبوا إليـكم ينظرون بـأكبـد تغلغل فـيها كل هـمٍّ مـلازم

ويؤكد الشاعر أن المسلمين فزعوا لهذا الخطب وجادت أنفسهم بالمال وانهالت تبرعاتهم من كل حدب وصوب وذلك بعد أن رأوا تحالف القوى العالمية ضد الدولة العثمانية . فيقول :

عن الهند أم عن مصر أم عن شآمها أردد أبـاء الكـرام الأعاظم ؟
كأن نـدى الهندي في هطلاتـه نـدى آل إبراهيم آل المكـارم
كأن نـدى السوري وهو سجيـة ندى كل شؤبوب من الغيث ساجم
وأما بنو مصر فسحب هواطـل جسام الأيادي في الخطوب الجسائم

ثم يدعو المسلمين إلى المزيد من البذل والعطاء ، ويهيب بهم أن يسرعوا لنجدة إخوانهم المجاهدين ، ونصرة دينهم بالنفس أو المال ليحظوا بالأجر والثواب فيقول :

أنـاديك يـا من أيقظتـه حميـة إذا نـام عنها الدهر لم تتنـاوم
وأدعوك يا من شاقـه نصر دينـه وقد هام في وادي الندى كل هائم
إذا لم تمكنك الأحاظي من الوغى بنفسك فـاغنم أجرها بالدراهم
أيصرفنا عن نصرة الحق صارف وتأخذنا في الله لومة لائـم ؟
ونبخل بالطل اليسير وخصمنـا يجـود بصوب العارض المتراكم ؟

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى دول البلقان ، ويطلب منها أن تكف عن غيها وترعوى عن غدرها فيقول :

أيا أمم البلقـان فيئوا لرشدكـم ولا تتراموا في حضون الجواحم
أفي أي حق غدركم بجـواركـم وفي أي دين حربكم للمسالم ؟
جنـايتـه إحسانـه لجـواره وآثامـه رعي البغـاة الأوائـم
فمـا أنـتم إلا جنـاة تعـوّدوا ركوب الـدنـايا وارتكاب الجرائم

ثم يحذرهم من أن يشنوها حرباً صليبية . ويتوعدهم بحرب طاحنة وهزيمة منكرة فيقول :

تخيفوننا بالحرب . والحرب عندنا ... لمن ألف العدوان أشهى المطاعم
صليبية تدعونها . ونعدها ... هلالية . والسيف أعدل حاكم
وسوف ترى سود القلانس ما الذي ... ستلقاه من كرات بيض العمائم
سيعلم من منا إذا اشتد وقدها ... يداس على يافوخه بالمناسم
سيعلم من منا إذا طال عمرها ... يُدنس برديه بعار الهزائم

ثم يحذر المسلمين من عدوان المعتدين الذين يتربصون بهم الدوائر فيقول :

بني الشرق هبوا إن في الغرب هبة ... تعد عليكم كل بار وحاطم
تسير إلى أيمانكم بغلائل ... وتمشي إلى أفواهكم بكمائم
أعدت عليكم منكم كل غافل ... وعدت لها أوطانكم غنم غانم

ثم يختتم الشاعر قصيدته بدعوة أمته إلى جمع الشمل وتوحيد الصف فيقول :

ألا فاجمعوا أشتاتكم وتدبروا ... وردوا إلى آرائكم كل حازم

وتألم الشيخ العراقي محمد حسين آل كاشف الغطاء من هذه الحروب التي تشن على الدولة العثمانية المسلمة . ورأى أنها حروب صليبية تستهدف الإسلام والمسلمين فأنشأ قصيدة تجلت فيها مشاعره الإسلامية المتأججة فقال : (١)

سل لدى الحرب ألسن النيران ... عن صنيع الإنسان بالإنسان
أو سل الأرض ما جرى فسيول الـ ... ـدم فيها هدارة بالبيان
أو سل الشرق ما لقيت من الـ ... ـغرب وعدد غرايب العدوان

ثم استثار الشاعر نخوة المسلمين حيث عرض عليهم صور النساء الأيامى والأمهات

(١) الأدب العصري في العراق العربي : جزء ٢ . ص ٨٧ ـ ٨٩ .

الثاكلات ودعاهم إلى نجدَتِهنّ فقال :

كم بريئات أنفس أشبعتها ... غصص الموت جاشعات الأماني
كم جريح ملقى وآخر شلوا ... وصريع مضنى وآخر عاني
كم نساء أضحت أيامى تعاني ... من يتامى فقيدها ما تعاني
تعقد الراحتين بالقلب مهما ... نثرت بالدموع عقد جمان
كم ثكول تشجي الحمائم بالنو ... ح فتبدي غرائب الألحان
ولكم أم واحد ذات رزء ... ماهما عن عويلها من ثاني

ثم توجه الشاعر للمسلمين فأنّبهم على تقاعسهم واستفزهم لإغاثة إخوتهم في الله فقال :

أيها المسلمون هبوا فليس الـ ... ـموت إلا حياتكم بهوان
قد دهاكم ويل فماذا التمادي ؟ ... وأتاكم سيل فماذا التواني ؟
جاءكم جارف من الغرب تيا ... ر يهد البنا وأس المباني
يستغيث الإسلام فيكم فيلقى ... عنه منكم تصامم الآذان
صارخاً فيكم فهل من سميع ؟ ... صرخات الإسلام والقرآن

ويؤكد الشاعر أنه لا مجال للسلم بعد أن شُنّت حرب الطليان في ليبيا وحرب البلقان في أوروبا فيقول :

أفيرجو الإسلام لقيان سلم ... بعد حرب الطليان والبلقان

ثم يمعن في لوم المسلمين وتقريعهم . إذا لم يهبوا للدفاع عن دينهم والذود عن وطنهم فيقول :

إن بيض الوجوه سود إذا لم ... تغد حمراً من النجيع القاني
إن لبس الثياب خزي إذا لم ... تجعلوها لكم من الأكفان
إنكم والنساء ـ ما لم تذودوا ... عن حماها عدوّكم ـ سيان
إنكم ـ والأوطان فيها الأعادي ... تتهادى ـ عار على الأوطان

ويعلن أن هذه الحروب التي يشنها الغرب على المسلمين في كل مكان إنما يبتغى منها القضاء على الإسلام وتدمير المسلمين فيقول :

أظهر الغرب ما أجن من الغـد ... ر وأبدى كوامن الأضغان
وأحاطت بالمسلمين عـلوج الـ ... ـبغي من كل جانب ومكان
يتشكى المراكشي اغتصابا ... وكشكواه يشتكي العثماني
وإذا ولولت طرابلس في الـ ... ـغرب أتاها العويل من إيران

ونظم الشاعر العراقي عبد الحسين الحويزي قصيدة استهلها بهذا المطلع الحماسي : [1]

السيف يقصر عن إدراكه القلم ... هذا موارده حبر وذاك دم
هذا يفوه إذا جد الخصام به ... نطقاً وذاك مع الأرواح يختصم
إن اليراعة في القرطاس موقعها ... والسيف موقعه الأعناق والقمم

والشاعر هنا ينهج منهج أبي تمام في قصيدته التي قالها في مدح المعتصم العباسي وتهنئته بفتح عمورية التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقد أهاب الحويزي بالمسلمين أن يهبوا لنصرة الإسلام فقال :

تطاحنت ملة الإسلام خاضعة ... وفي المواطن لم يخفق لها علم
فأين عنها حماة الدين تمنعها ... بنجدة من لقاها الموت ينهزم ؟
هبوا بني المجد من إغفاء رقدتكم ... لاعاقكم ملل عنها ولا سأم

ثم عمد إلى تحريك النخوة فيهم فقال :

فلا تكونوا وقد سايلتكم زمرا ... كالخيل ماسكة أفواهها اللجم

ثم تساءل عن العجم المسلمين لم لا يؤيدون العرب والأتراك في حربهم هذه فقال :

(١) ديوان الحويزي : ص ٣٧ . وجاء في الديوان أنها نُظمت سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م .

العرب والترك قاموا دون حوزتهم لم لا تقوم مواساة لها العجم ؟

ثم طفق يحض المسلمين على الذب عن الدين والوطن . والجهاد في سبيل الله . والتحلي بالصبر . وذكرهم بالانتصارات الماضية فقال :

ذبوا عن الدين والأوطان حيث بها يصان عن كل ذي بغي لكم حرم
وجاهدوا في سبيل الله وادّرعوا بالصبر حيث خطا الأهوال تقتحم
والهام تبكي دماً والقضب تقرعها لكن ثغور المواضي البيض تبتسم
فالروم قد غلبت قدماً ببيضتكم وبيضكم في المعالي شأنها القدم

وعجب الشاعر من تخاذل بعض المسلمين عن نصرة الدولة العثمانية فقال :

ما لليماني لم ترهف مضاربه أحلاه عن قراع الهام منثلم
ما للنقابة في بغداد خاملة ولم يكن زندها الواري به ضرم [1]

ثم عبر عن ثقته بالنصر فقال :

دار السعادة بالبلقان قد ملئت كأنها الشمس أخفت نورها الظلم
يأبى الهدى . وبيوت الله أجمعها يعلو الصليب بها أو يعبد الصنم

ثم أكد رسوخ الوحدة الإسلامية بين الشعبين العربي والتركي فقال :

القوم إخواننا نرضى وإن غضبوا والروم أعداؤنا نأبى وإن حلموا
هم العروق ونحن الجسم إن قطعت من المفاصل لم تقطع لها رحم

ثم حضّ الشاعر المسلمين على الجهاد . وبين أهمية وجود الخليفة فقال :

تقدموا للوغى والبيض عادية والموت أصلع ما في رأسه لمم
فلا تقر بلا حام ممالكنا وكيف من غير راع تأمن الغنم ؟

(١) النقابة : يقصد بها نقابة الأشراف ببغداد . والنقابة مركز ديني وسياسي هدفه الدفاع عن قضايا العلويين .

ثم ساق الدليل بالافرنج وحفظهم لسواحلهم فقال :

ألم تكن دولة الإفرنج حافظـــة سواحل البحر تردي القوم إن هجموا

وختم القصيدة بالثناء على الدولة العثمانية فقال :

من شأنها العدل ما جارت حكومتها لهـا الحـداثة بالتمهيد والقـدم

وأنشأ محمد الهاشمي البغدادي قصيدة صور فيها ألمه وحزنه على بلاد المسلمين التي صارت هدفاً للغزاة فقال : (١)

ألا ليت شعري هل يباح لي الكرى وفي وطني هوج الوقـائع تـعصم
أتى جـارف الأعداء يغشى بلادنا لأمواجه حـول المواطن هيقـم (٢)
تألبت الأعـــداء طرا لـــيهدموا دعـائم للإسلام لا تتهـــــدم
فيا غيرة الإسلام هــذا احتيـاجنا إليك وهــذا المأزق المتجهــم

ثم حيا المسلمين وعجب من اختلافهم والأعداء يتكاتفون عليهم فقال :

إلى أمم الإسلام أهدي تحيـــة بها الحزن يطوى والمدامع تسجم
لماذا اختلفتم والأعادي تظاهرت عليكم وأنتم في التخـاذل نوّم

ثم حذر المسلمين من الاختلاف ، وحض ركني الأمة الإسلامية الكبيرين العرب والترك على الاتحاد فقال :

دعوالخلف إن السيل قد بلغ الزبى فمـا الخلف إلا مـرتع مـتوخم
أرى العرب والأتراك في الدين إخوة وما الترك إلا في بني العرب تعصم
لأولهـم فضل وفضل لآخـــر كـــأنهم للـدين كف ومعصم

ثم بين أنه لا فوارق بين هاتين الأمتين حتى يقع الانفصام بينهما فقال :

وما الفرق بين العرب والترك بالذي يسدد ما أيدى الحوادث تفصم

---

(١) ديوان الهاشمي : ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥ . وجاء في الديوان أنها نظمت سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م .
(٢) الهيقم : البحر الفِقَمّ . وحكاية صوت اضطراب البحر .

ثم خص العرب بالخطاب والنصيحة فقال :

فيا أيها العرب الكـرام تظاهروا ... مع الترك إن الحق بالحق يـدعم
وإلا فـأنتم للـخطوب دريئـة ... تروح أمور الذل فيكم وتعتم
فلا الدين دين الله يبقى ولا الهدى ... يؤيـد دعواه ولا الملك يسلـم

ثم أهاب بالأمتين أن تكونا صفاً واحداً وخوّفهما من مغبة الفرقة والعداوة فقال :

فكونوا بنـاء في المصـائب واحدا ... إذا الدهر يبقى أو إذا الشر يهجم
أليس من الخسران أن بـلادنـا ... توزع ما بين العِدَا وتـقسم
أترضون أن تمسي عبيـداً جميعنـا ... لمن ليس يهـدينا ومن ليس يرحم
فلا تجدعوا آنـافكم بأكفكـم ... ولا تصبحوا الذكـرى لمن يتوسم

ثم ذم التعصب والنعرات القومية التي نادى بها بعض الناس وزعموا وجودها في الإسلام وذكر أن المسلمين سواسية في نظر الإسلام مهما اختلفت أجناسهم فقال :

تعصب بعض الناس في الشرق واقتفى ... سبيل العمى وهو الطريق المذمم
أفي الدين يا للناس كان تعصب ... بقومية أم ذا عن الجهل ينجم ؟
لقد أدخلوا في الدين ما لم يكن له ... من الحق أصل أم من الدين معلم ؟
وما رجح الإسلام ممن تمسكـوا ... بـه أحد أو قال هذا مقدم
ولكنه ساوى فكـان كمـا تـرى ... سواء بـه عرب وفرس وديلم

ثم حذر من مغبّة التعصب والاختلاف فقال :

سنؤخـذ طرا أمـة بعـد أمـة ... إذا نحن في هذا التعصب نجزم

ثم حض المسلمين على الذب عن أوطانهم فقال :

أتغزى بـلاد المسلمـين وعنـدنا ... قلوب ويجري في مفـاصلنا الـدم
لنـا كل يوم في الميـادين وقعـة ... ندق بهـا الآناف منـا وترغـم
فإن دام هذا الحال فالظلم دائـم ... على عالم الإسلام والـذل أدوم

ثم تناول المسألة البلقانية وما لقيه المسلمون هناك من ذل ودمار لبلادهم فقال :

سطت أمم البلقان في الأرض سطوة ... تمور سماء من لظاها وأنجم
وفي الروملي قد أنزل الخطب رحله ... وأصبح فيها الظلم وهو مخيم
هنالِك ذَلَّ المسلمون ودمرت ... بلادهم يا مَنْ مِن الذل يعصم
وكم قد مضى منهم خميس عرمرم ... إلى الحرب يتلوه خميس عرمرم
فجاهد حتى شتت الموت شمله ... وزاحم بحر الموت والبحر مفعم

ثم هاجم الزعماء الذين تولوا أمور المسلمين . وخالفوا المنهج الرباني ويعني الاتحاديين الأتراك فقال :

تولى بلاد المسلمين زعانف ... وقاموا بأمر ليس يرضاه مسلم
لقد ملئت بالغش سود صدورهم ... وآراؤهم يسوم المشاكل تقسم
أولئك خانوا قومهم وبلادهم ... فذكرهم باللعن والسب يختم
وقد دنسوا تاريخهم في بلادهم ... بعار لهم في صفحة الدهر يرقم
وقد خسروا دنيا وأخرى فما لهم ... رجاء إذا يرجو الكرامة مجرم

ثم توجه للشرق المسلم يستنهض همم أبنائه . ويدعوهم إلى الوئام ويذكرهم بأيام العز وليالي المجد فقال :

ألا أيها الشرق الذي طال نومه ... أأنت ضعيف الكف أم أنت أعسم؟
ويا معشر الإسلام إن خلافكم ... لشؤم ولكن التباغض أشأم
خبت ناركم من بعد ما كان نورها ... به يستضيء الكون والليل مبهم
وكانت على هام الرجال سيوفكم ... بها الجرح يؤسى أو بها الداء يحسم

ويزيد الشاعر المسلمين إثارة واستفزازاً فيختم القصيدة بقوله :

أيا غيرة الإسلام إن بلادنا ... بها الناس تصلى والمنازل تضرم
ويا غيرة الإسلام إن بلادنا ... تصاب ووجه العدل أربد أقتم [1]

(١) أربد وأقتم : أي أغبر .

obeikandl.com

تهان النساء المسلمات وتستبى أيامى وأطفال هناك تيتم
فيا وحدة الدين انجيدينا فإننا بنا حل ليل الظلم فالكون مظلم

وأهاب عبد الحميد الفراهي بالمسلمين جميعهم أن يهبوا إلى الجهاد ويحموا معاقل الإسلام فقال : [١]

شبت على بلقان نار الحروب أشعلها بالبغي أهل الصليب
يا كرد يا تاتار يا كابل يا كل من لله عبد منيب
في مشرق الآفاق أو مغرب أو في شمال الأرض أو في جنوب
يدعوكم الإسلام جهراً إلى ذب العِدَا عنه فهل من مجيب ؟
قوموا لنصر الحق من فوركم واستنفروا من كل مرد وشيب
مستنصرين الله ينصركم بنصره الموعود غير الكذوب

وبعد أن تمّ لدول البلقان النصر على تركيا حدث أن اختصمت هذه الدول فيما بينها على التركة ، واشتد الخلاف وقامت الحرب بين هذه الدول ، وقد تمكنت تركيا على إثر هذا النزاع من استعادة بعض أراضيها ومن ضمنها مدينة أدرنة .

وقد فرح المسلمون بهذا النصر ، وعبر الأمير شكيب أرسلان عن فرحته وفرحة المسلمين باسترداد أدرنة فقال : [٢]

أدرنتنا لو كان للصخر ألسن بها يوم عاد الرّاجعوها تكلما
فما من فتى إلا وأجهش بالبكا ولا من جواد عاد إلا وحمحما
ولا غادة إلا وكفكف دمعها مكر حماة العرض كالسيل مفعما
ولا منبر إلا وأورق بهجة وقام عليه ساجع مترنما
وقرت عيون المصطفى في ضريحه وهناه في الفردوس عيسى بن مريما

ثم أشاد بالجيش البطل الذي استردها فقال :

(١) ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي : ص ١٨ .
(٢) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

خميس إذا النيات صحت رأيتـه ... يخـيم معُه نصره حيث خيمـا
تأمل أهاضيب الجبـال وقد رست ... وحدث عن البحر المحيط وقد طمى
تضيء نـواحيـه بغـرة عـزة ... مشيع مـا تحت الضلوع غشمشا
يليه من الأبطال كل غضنـفر ... إذا عبس الموت الزؤام تـبسما
تراهم ليوثا في الوغى وضيـاغما ... وفي أفق النـادي بدورا وأنجما

ثم صور الشاعر حالة أدرنة بعد استردادها فقال :

فيا لك من يوم غـدا في خطوبنـا ... كشادخة غراء في وجه أدهمـا
وكانت بقايا السيف تبكي فأصبحت ... تضاحكهم طراً ملائكة السمـا
عسى كل يوم بعـد يوم أدرنـة ... يعود على الإسلام عيـدا وموسما
وليس على المولى عزيز بأن نرى ... هنـاء محا ذاك العزاء المقـدمـا

ولقد زار الشاعر أدرنة بعد استردادها في وفد عربي لتهنئة أهلها بالرجوع إلى الدولة العثمانية ، وأدَّى صلاة الجمعة مع جموع الناس في جامع السلطان سليم بأدرنة وهو من الجوامع الكبرى في العالم الإسلامي ، فازدحم الجامع بأهالي المدينة بعد أن علموا بقدوم الوفد ، وكان الشيخ أحمد الفقيه أحد علماء مكة المكرمة في عداد الوفد وقد ألقى هذا الشيخ في المسجد خطبة استدرَّ بها عبرات المصلين حين تناول الفجائع التي حلت بالإسلام ونجم عنها خروج ذلك البلد من يد الدولة . ثم استرداد الدولة لها وتبدل الخوف أمناً والوحشة أنساً والمأتم عرساً [١] .

ثالثاً : الحرب العالمية الأولى

توالت الأحداث وتتابعت الحروب على تركيا على الرغم مما بذله السلطان عبد الحميد من الجهود لدرئها .

فلقد قامت الحرب الطرابلسية سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١١ م . وشنت الحرب البلقانية سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٢ م . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى التي قصمت الظهر سنة ١٣٣٣ هـ ـ

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٨٢ .

١٩١٤ م . حيث دفع رجال الاتحاد والترقي الدولة العثمانية إلى الاشتراك في هذه الحرب بجانب ألمانيا وذلك على الرغم من معارضة [١] الخليفة العثماني محمد رشاد ومعارضة العديد [٢] من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية حيث أخذوا يستهجنون دخول تركيا في هذه الحرب كل الاستهجان .

وعلى الرغم من ذلك فقد هزت تلك الحرب مشاعر المسلمين فاندفعت الشعوب الاسلامية في تأييد الدولة العثمانية [٣] .

وتطوع المتطوعون من سائر بقاع العالم الإسلامي . وانضموا مع الأتراك يجاهدون في صفوفهم . وكان منهم الضباط العراقيون [٤] الذين حاربوا ببسالة وحماسة تحت راية الخلافة الإسلامية .

ولقد عبر الشعراء عن عواطف المسلمين ومشاعرهم . فأيدوا الدولة العثمانية في حربها وحثوا المسلمين على الوقوف بجانبها . وحذروهم من القوى العالمية التي تعمل على تفريق شملهم . وبعثرة قواهم . وهاجموا الخلفاء وكل من شايعهم .

ولقد امتازت أشعارهم بالطابع الإسلامي الحماسي الذي يدعو المسلمين كُلَّ المسلمين إلى اليقظة وحمل السلاح .

وكان الرصافي حين أعلنت الحرب في الأستانة [٥] . فنظم على الفور قصيدته اجهادية . دعا فيها المسلمين جميعاً إلى الجهاد والذود عن وطنهم الإسلامي الواسع . وحض كل قادر على حمل السلاح فقال [٦] :

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا ... فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدوّ الله كـل فتـى ... ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا
واستنهضوا من بني الإسلام قاطبة ... من يسكن البدو والأرياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن ... به تقيمون ديـن الله والسنـنا

(١) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٣٥ .
(٢) حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ . ص ٣١٦ .
(٣) المصدر السابق : جزء ١ . ص ٣١٦ .
(٤) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٥٢ .
(٥) الشعر العراقي الحديث : ص ٨٥ .
(٦) ديوان معروف الرصافي : جزء ٢ . ص ٤٨٩ .

ثم أكد الشاعر أنه لا عذر للمسلمين إذا تخلفوا عن الإسهام في هذه الحرب بجانب الجيوش العثمانية ولم يذودوا عن الأقطار الإسلامية فقال :

لا عذر للمسلمين اليوم إن وهنوا ... في هوشة ذل فيها كل من وهنا [1]
ولا حياة لهم من بعد إن جبنوا ... كلاّ وأي حياة للذي جبنا
عار على المسلمين اليوم أنهمُو ... لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عدنا

وهاجم الرصافي خديوي مصر (حسين كامل) ووزيره حسين رشدي اللذين ساعدا الإنجليز . وخرجا على جماعة المسلمين فخانا دين الله وخذلا إخوتهما في الإسلام فقال :

قل للحسينين في مصر رويدكما ... قد خنتما الله والإسلام والوطنا
شايعتما الإنكليز اليوم عن سفه ... تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدين بالدنيا مجازفة ... فكنتما في البرايا شرَّ من غَبُنا

ثم حذرهما من جيوش التوحيد الزاحفة فقال :

هذي جيوش بني التوحيد زاحفة ... على العدا وعلى من ضل مفتتنا

ولقد افتخر الشاعر بدولة الإسلام الكبرى وجيشها الزاحف لرد الأعداء وحماية الوطن . وأكد أنه لا بد من أن يسود الدين وتعلو راية التوحيد فقال :

لا زلت يا وطن الإسلام منتصراً ... بالجيش يزحف من أبنائك الأمنا
يرد عنك يد الأعداء خاسرة ... ويكشف الغم عن أفقيك والمحنا
سعديك من وطن جلت مفاخره ... عن الزوال فلا تخشى بِلىً وفنا

ثم أشاد بالدين الإسلامي ونوّه بأيام عزه ومجده فقال :

تالله إن معاليك التي سلفت ... تعيي الفصاحة والتبيان واللسنا
كم قد أقمت على الأيام من شرف ... لنا وأنبت من نبع العلا غصنا

(١) الهَوْش : العدد الكثير يجتمعون في الحرب .

ثم أكد حبه لهذا الوطن وأنه يفديه بالأرواح والمُهج . وقد استعمل في ذلك ضمير الجمع ليبين أن هذا هو شعور المسلمين جميعاً فقال :

إنا نحبك حباً لا انتهاء لـــه يستغرق الأرض والأكوان والزمنا
نفـديك منـا بـأرواح مطهرة أخلصن لله فيك السر والعلـــنا
وإذا دهتك مـن الأيـام داهيـة فلا رعى الله عينـاً تـألف الـوسنـا

ولقد أخذت تركيا ترسل الوفود إلى البلاد العربية لحث الناس على تأييدها والوقوف معها .

روى الأمير شكيب أرسلان [١] أنه قدم عليهم في سوريا وفد تركي مؤلف من بضعة عشر شخصاً لتوثيق الأواصر بين العرب والترك فأقيمت لهم الاحتفالات في حلب والشام والقدس وغيرها . وأعد لهم والي الشام آنذاك مأدبة فاخرة فألقى الأمير شكيب في ذلك الحفل السياسي قصيدة حيا فيها الترك الذين خدموا الإسلام وحموا الخلافة رمز الوحدة وصانوها فقال : [٢]

أحبكم حب من يـدري مواقفكم في خدمة الدين والإسلام من حقب
ومذ تقلدتمو أمر الخلافـة قـــد آويتمو من بنـــيها كل مغـترب
لقـد ضربتم لعمري في حيـــاطتها بكل سيف رهيب الحد ذي شطب

ثم دعا الشاعر إلى وحدة الكلمة وقال : إنه مهما وقع بين العرب والترك من خلاف فإن الرابطة الإسلامية راسخة . والأخوة الإيمانية ثابتة . فالدين واحد . وشهادة أن لا إله إلا الله تجمع القلوب وتوحد الصفوف فقال :

كفى الشهادة فيمـا بيننـا نسبـا إن لم تكن جمعتنـا وحدة النسب

وحين يريد الشاعر الفخر بالعرب فإنه يقدم عليهم العثمانيين لأنهم حموا الدين فيقول :

مجـدي بعثمـان حامي ملتي وأنـا لم أنس قحطان أصلي في الورى وأبي

---

(١) ديوان الأمير شكيب أرسلان : ص ١٢٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٢٩ .

ويندفع الأمير شكيب أرسلان في تأييد تركيا . ذلك لأنه كان يوقن بأن هذه الحرب إنما هي حرب صليبية ضد الإسلام والمسلمين .

ولقد طفق الشاعر يكتب الرسائل تلو الرسائل إلى شريف مكة يحذره من الانضمام للإنجليز ويهاجمه ويدعوه إلى أن يفيء إلى رشده ، ويرعوي عن غيه ، ويكف عن مساعدة الإنجليز أعداء الإسلام والمسلمين [١] . وفي سنة ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٥ م زار الشيخ محمد حبيب العبيدي مفتي الديار الموصلية الجيش العثماني المرابط بالثغور ونظم قصيدة افتخر فيها بذاك الجيش فقال : [٢]

سرينا من فروق نزور جيشا ... أتى بالمعجزات على الثغور
بمسبعة تريك الأسد فيها ... زفير النار يشفع بالزئير
وهمهمة الكماة أشد سمعاً ... غداة الروع من بمٍ وزير

ويسترسل الشاعر العالم في مدح ذاك الجيش والفخر به ، ثم يخاطب الخليفة الذي أحيا مجد الإسلام فيقول :

أمير المؤمنين وفيك منجى ... لدين الله في اليوم العسير
لقد أحييت للإسلام مجدا ... أماتته الكوارث مذ عصور

ثم يدعو للخليفة ، ويعلن أن جهاده إنما هو جهاد في سبيل الله فيقول :

فعش يا خامس الخلفاء دهراً ... هو الإنسان من يمن الدهور
تجاهد في سبيل الله حقا ... وتدعو المسلمين إلى النفير

ويختتم قصيدته بتحية ذلك الجيش الذي انطلق يمحق الكفر ، ويحمي الإسلام ، ويعلي راية التوحيد ، ويبيع النفس رخيصة في سبيل الله فيقول :

فيا جيشاً على اسم الله يغزو ... فيمحق كل مختال كفور
ويشري الحمد ميسوراً ولكن ... يبيع النفس بالثمن اليسير

(١) المنار : المجلد ٢٦ ، ص ٢٣٨ ، (٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هـ) .
(٢) ذكرى حبيب (ديوان السيد محمد حبيب العبيدي) : ص ٧٥ .

هذا وقد كان الشاعر العالم منتسباً إلى الجيش الرابع الذي كان بقيادة أحمد جمال باشا التركي ناظر البحرية . [١] وقد ألف كتابين الأول : (حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام) والثاني : (جنايات الإنجليز على البشر وعلى المسلمين خاصة) . هاجم فيهما الإنجليز وحث الناس على وجوب محاربة بريطانيا . ودعا المسلمين إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف . وبيّن ـ رحمه الله ـ أن الخلافة هي الرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية والوسيلة العظمى للم الشعث وجمع الشمل .

ولقد تكونت في مصر جمعيات سرية في سنة ١٣٣٧ هـ ـ ١٩١٨ م تهدف إلى الاتصال بالسنوسيين للهجوم على الإنجليز في مصر . وكانت المنشورات التي تلقيها الطائرات التركية والألمانية تغذي هذا الشعور ، وتثير في المصريين الحمية الإسلامية وتذكرهم بعدوان الإنجليز عليهم وعلى إخوانهم المسلمين [٢] .

ولقد نظم الشعراء المصريون قصائد عبروا فيها عن ولائهم لدولة الخلافة الإسلامية ، وهاجموا الإنجليز وحلفاءهم .

ومن أولئك الشعراء عبد المطلب وأحمد محرم ، فعبد المطلب نظم قصيدته (الحرب العظمى) وقد روى في ديوانه أنه بدأ قصيدته هذه يوم إعلان الحماية الإنجليزية على مصر سنة ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٤ م ومطلعها [٣] :

هلال الهدى في دارةِ المجد أشرق ودونك ليل الغي بالرشد فامحق [٤]

وفي القصيدة هجوم على الإنجليز ، ووصف لجرائمهم التي ارتكبوها من نفي وقتل وسجن وجلد حيث يقول :

فكم سيـد بين الغيابـات حتفه وآخر بالأصفاد والسوط مرهق [٥]

ترى أدمع النعمى بنـاعم جسمه نجيع دم من جلده المتمزق [٦]

---

(١) ذكرى حبيب (ديوان السيد محمد حبيب العبيدي) : ص ٩ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ٢ . ص ١٣ ـ ١٤ .

(٣) ديوان عبد المطلب : ص ١٥٩ ـ ١٧٤ .

(٤) الدارة : هالة القمر ، وهي المحل يجمع البناء .

(٥) الغيابات : جمع غيابة كسحابة ، وهي من كل شيء ما ستر ك منه ، يريد بها السجون والمنفى .

(٦) النجيع من الدم : ما كان إلى سواد .

وأشار إلى سوق الناس قهراً إلى ميادين القتال لخدمة الإنجليز فقال :

جموع كآجال النعام تلفها ... يد القهر للآجال من كل منعق (١)

ثم أكد الشاعر أن الحزن خيم على كل بيت وأصابه بالرزء فقال :

ففي كل بيت صوت ثكلى مُرِنَّة ... وتحنان بَاكٍ بالأسى متمنطق (٢)

ويسترسل الشاعر في وصف البلاء ، ومهاجمة الإنجليز . ثم يتوعد الإنجليز ويحذرهم ويشير إلى أحلافهم وائتمارهم بالخلافة . ومهاجمتهم دارها فيقول :

فأبلغ بني « التاميز » عنا وحلفهم ... بباريس أنباء النذير المصدق
عشية يحدون الأساطيل شُرَّعاً ... على اليم تحبو في الحديد المطبق (٣)
تشن على دار الخلافة غارة ... من البحر ، إن تقرع بها الدهر يفرق
نصبنا لهم في كل جو خبيئة ... تصب عليهم كل شعواء خيفق (٤)

ثم يصور هزائم الإنجليز وحلفاءهم في الشام والعراق فيقول :

وما كان جيش الشام إذ ضل كيدُه ... بأشأم من جيش هنالك مُعرق (٥)
تركنا لهم سيف العراق ليشهدوا ... ببغداد كيد الحارش المتنفق (٦)
فما رطئوا « بغداد » حتى تبينوا ... وجوه الردى في « سر من را » وسُرَّق (٧)
وكم ذاكوت « كوت الإمارة » منهم ... قفا هارب أو ذي إسار محلق (٨)

---

(١) الآجال : الأولى جمع واحده أجل (بالكسر) وهو القطيع ـ المنعق : اسم مكان . من نعق الراعي بغنمه إذا زجرها .
(٢) المرنة : اسم فاعل فعله أرن بمعنى صاح .
(٣) المطبق : الشامل الذي يغشى ويعم .
(٤) الخيفق : الداهية .
(٥) أعرق الرجل : أتى العراق .
(٦) السيف : الساحل ـ وحرش الضب : صاده . فهو حارش . وهو أن يحرك يده على حجره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه ـ تنفق الرجل اليربوع : أخرجه من نافقائه فهو منتفق .
(٧) سر من را : مدينة بالعراق وكذلك سرق .
(٨) المحلق من الإبل : الموسوم بحلقة في فخذه أو أصل أذنه .

ثم يسخر الشاعر مما يذيعونه من أنباء كاذبة عن انتصاراتهم فيقول :

عجبت لهم إذ ينشر البرق عنهم ... على الناس أنباء الكذوب المنفق

ويود أن يكفوا عن غيهم ويأخذوا العبرة من الروس الذين مزقهم البغي والظلم فيقول :

وماذا عليهم لو أنابوا إلى النهى ... فلم يأتفك غاوٍ ولم يتخرّق [١]

فللحق نور كلما ائتلق ازدهى ... وللبطل برق حيثما يزه يزهق

ألم تر كيف استأصل الروس بغيُها ... ومزقها العدوان كلَّ ممزق

ثم ينعي الشاعر على المسلمين حالتهم التي وصلوا إليها بسبب الجهل فيقول :

شريعة جود لم يَخُنَّا رسولُها ... بمعجز وحي أو كتاب مصدق

ولكنها إرهاق قوم هوت بهم ... يد الدهر أو تأييد حق ملفق

بلاد أذل الله بالجهل أهلها ... وذو الجهل من حوض المذلة يستقي

تقسم كالأنفال بين معاشر ... تنادوا إليها في عديد وَدَرْدَق [٢]

ويشير إلى أطماع الإنجليز والفرنسيين فيقول :

فهذي لها في المغربين مصالح ... وتلك لها حق على كل مشرق

وهذي لها أرض الجزائر نحلةً ... ومآكيد أخرى في «البوير» بمخفق

وإن سبقت هذي إلى الهند غيلة ... تُصَل بأرض «السند» أخرى فتلحق [٣]

وإن هجست بالصين أحلام طامع ... فرُبَّ رؤًى مرت ولم تتحقق

وهذي لها في الشام بعض مرافق ... وتلك لها في أختِه كل مرفَق

وكذلك فعل أحمد محرم . فقد هاجم الحلفاء . ومدح الأتراك في عدد من القصائد التي نظمها بمناسبة هذه الحرب الضروس حيث نشر في سنة ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٥ م قصيدته التي

(١) يتخرق : يختلق .

(٢) الأنفال : الغنائم ـ الدردق : صغار الناس .

(٣) تُصَل : من صلى اللحم وغيره إذا شواه .

حيا فيها الأتراك . وأشاد بعودة اللقاء والتلاحم بينهم وبين العرب فقال : [١]

نهضت أوجاشت الأعراق تنهض بي ... إلى سيوف بني عمي أحييها
أسباب دنيا ودين بيننا اجتمعت ... بعد التفرق وانضمت أواخيها
قال الوشاة تمادى عهدها فوهت ... أين الوشاة وأين اليوم واهيها ؟
إذا النفوس تناءت وهي كارهة ... كان الهوى والتنائي في تنائيها

ثم أسبغ على الجيوش العثمانية من الصفات ما لم ينله جيش قبلها فسيوفها المصاحف . ودروعها الآيات البينات . وقائدها الروح الأمين . وهي في حماية الله ورسوله :

الله أكبر جاء الحق وازدلفت ... جندٌ ملائكةٌ يعتز غازيها
المصحف السيف والآيات أدرعها ... والقائد الروح والمختار حاميها
من ذا يصارعها ؟ من ذا يقارعها ؟ ... من ذا يدافعها ؟ من ذا يناويها ؟

وتوعد الإنجليز ودعاهم أن يكفوا عن غيهم . ويتركوا المسلمين وشأنهم . وحذرهم من أن يمسوا الخلافة بسوء فقال :

خلُّوا السبيل (بني التاميز) واجتنبوا ... أسداً تفر المنايا من ضواريها
دعوا (الخلافة) إن الله حافظها ... وإن بأس (بني عثمان) واقيها

ولقد سيطرت العاطفة الدينية العميقة على الشاعر . فوصف جهاد الأتراك بأنه جهاد في سبيل الله وحفظ لكتابه .

ولهذا أعزهم الله وأذل أعداءهم فقال :

يمشي الزمان مُكِبًّا تحت ألويةٍ ... راموا السماء فنالتها عواليها
صانوا (الكتابَ) فصان الله دولتهم ... واستوصلت دولٌ بالسوء تبغيها
أمست حديثاً وأمسى كل معتمر ... فيها طلولا يناجي اليوم عافيها [٢]

(١) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .
(٢) عفت الريح المنزل : درسته ومحته ـ عفى الأثر : امحى واضمحل .

ثم افتخر الشاعر بسيوف الترك التي أدبت الرئيس الأمريكي ويلسون فقال :

إن السيوف سيوف الترك ما برحت ... تحمي حماها وتمضي في أعاديها
كانت (لويلسون) نوراً يستضيء بها ... في ظلمة الحرب لما ضل هاديها

ثم يسخر الشاعر من الإنجليز وما يذيعونه من أنباء كاذبة عن انتصاراتهم فقال :

لما مضى القوم في أحكامهم شططاً ... أوحى إليه صواب الحكم موحيها
لاذوا به وأذاعوا كل رائعة ... من الأحاديث تضليلاً وتمويها
سجية لبني التاميز نعرفها ... وخدعة لم تغب عنّا مراميها
كم روعوا مصر بالأنباء لو صدقت ... لم يترك اليأس حُراً في مغانيها

ولما وردت الأنباء بانتصار الأتراك بقيادة مصطفى كمال في معركة «غاليبولي» [١] سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٦ م اهتزت مشاعر محرم . فنظم قصيدة أربت على مائتي بيت أعرب فيها عن فرحته وفرحة العالم الإسلامي أجمع بنصر الله وإعزازه فقال [٢] :

طرب الحطيم وكبر الحرمان ... واعتز دين الله بعد هوان

وهو يقرر أن القوة يكمن فيها الفوز . وتتحقق بها الغلبة فيقول :

قامت سيوف الفاتحين بنصره ... والنصر بين مهند وسنان [٣]
ظمئت جوانحه إلى حرِّ الوغى ... فسقته شؤبوب النجيع القاني [٤]
تعدو الذئاب على مُمنَّع غِيلِهِ ... والأسد غَضبَى والسيوفُ عَوَاني [٥]

وأهاب الشاعر بالمسلمين أن يؤيدوا تركيا في جهادها . وذكرهم بضعفهم إذا تفرقوا

---

(١) نظر تفاصيل هذه المعركة في كتاب الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : ص ٣٨٥ .

(٢) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) . هذا ولقد كتب الشاعر هذه القصيدة على فترات زمنية متفاوتة . ففيها صدى لأحداث مختلفة كمعركة غاليبولي سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٦ م . والثورة البلشفية سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٧ م .

(٣) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ـ السنان : نصل الرمح .

(٤) شؤبوب : الدفعة من المطر وحدة كل شيء وشدة دفعة ـ النجيع : هنا دم الجوف .

(٥) غيل : موضع الأسد ـ عواني : بمنزلة الأسارى .

وطمع الأعداء فيهم . وأن هذه الحرب صليبية تُشنُّ ضد الإسلام والمسلمين فقال :

لا قبــةُ الإسلام قــائمــةٌ . ولا ... مَلكُ الخلائــف . ثابت الأركــان
يمضي تُراث المسلمين موزعــاً ... والمسلمــون نــواكس الأذقــان
ما بــين مِصر . إلى طرابلس . إلى ... عدن . إلى القوقاز . فــالبلقــان
كر الصليب عليــه كرة حــانق ... ضرم العــداوة ثائــر الشنـــــان [١]
حار (الهلال) فمــا يحاول نهضة ... إلا رمـــاه محلِّــق الصلبــان

ثم سخر من الغرب ومن حضارته وهو يشن هذه الحرب الجائرة . وتباهى بالدين الإسلامي ومثله العليا فقال :

زعموا الحضارة أن يُبيدَ طغاتُهم ... ديــن الحيــاة وملةَ العمـــران
مــاذا يــروع الظــالمين وبينــنا ... أَمْــنُ المَــرُوعِ ونجــدة اللهفان
إنــا بنو القــرآن والديــن الــذي ... صدع الشكــوك وجــاء بــالتبيان
ضاعت حقوق العالمين فردهـــا ... وأقــامهــا بــالقسط والميــزان
ظلم العــزيزُ فهــدَّه وأهــانــه ... وحمى الذليلَ فبات غير مهــان
نعفو . وما اشتفتِ السيوفُ ولا هفا ... بصــدورهــا شوق إلى الأجفــان

والشاعر يفخر بالجيش العثماني المسلم الذي حمى الخلافة وصانها . وأخلص لله ونصر دينَه . فصاحبه النصر ورافقه التأييد فيقول :

منع الخــلافــة أن تُضــام وحــاطها ... حامي الحجيج وناصر القرآن
جيش يسير به (النبي) وحولــه ... جند الملائك بينهُ (العمران) [٢]
يهتز (عمرو) في اللواء و(خالد) ... ويمورُ (حيدرة) بكل عنــان [٣]
أخذ الفوارس أخذَ أغلب باسل ... ترتدُّ عنــه بواسل الأقــران [٤]

---

(١) الشنآن : البغض .
(٢) العمران : هما عمر بن الخطاب . وعمرو بن العاص رضي الله عنهما .
(٣) مار الشيء : تحرك بسرعة وجاء وذهب ـ مار الدم : جرى . والبحر ماج واضطرب .
(٤) الأقران : جمع قِرن بالكسر وهو الكفء والنظير في الشجاعة .

obeikandl.com

ثم تحدى الأعداء بذاك الجيش الذي أعز الخلافة ، ونصر الخليفة ، وأدب الأعداء فقال :

ما للجنود الباسلين وإن علَوا ... بجنود رب العالمين يدان
الحافظين على الخلافة عِزّها ... الناصرين خليفة الرحمّن
غدر العدو ، فعلمته سيوفهم ... صدقَ العهود وصحة الأَيْمان

ثم يحيي خليفة المسلمين الصادق الوفي ، ويبارك اختياره لهذا القائد البطل الذي أرهب الأعداء وأذلهم فيقول :

الله أدرك دينه بخليفة ... بر السريرة ، صادق الإيمان
أخذ السبيل على العدو (بقسور) ... دامي المكر ، مُخَضَّبِ الميدان [١]
ريعت له أمم النمال ، وأجفلت ... دول الثعالب منه ، والذؤبان
لما تردد في (فروق) زئيره ... رجفت جبال (الصين) و(اليابان) [٢]

ثم يسخر الشاعر من الحلفاء ويظهر الشماتة بهم بعد أن مُنُوا بالهزيمة فيقول :

في (الدردنيل) وفي (الجزيرة) بعده ... رعب المياه وروعة النيران
برزت تماثيلُ المنيةِ كلها ... شتى الضروب ، كثيرة الألوان
البحر يفتح للبوارج جوفَه ... فتغور ، من مثنىً ومن وُحْدان
والبر ملتهبُ الجوانح مضمرٌ ... حَنَقَ المغيظِ ولوعة الحران [٣]
شربوا المنايا الحمرَ يسطع موجها ... بين المروج الخضر ، والغدران
ما الجيش من نصر الإله وفتحه ... كالجيش من فشل ومن خذلان

ثم يشير إلى مصير «آل رومانوف» بعد الثورة الروسية البلشفية سنة ١٣٣٦ هـ ـ ١٩١٧ م وما أعقبها من انسحاب روسيا من القتال بعد أن كانت حليفة للإنجليز ، ويدعو إلى

(١) القسور : الأسد .
(٢) فروق : الآستانة .
(٣) الحنق : الغيظ .

أخذ العبرة فيقول :

يا آل رومانوف أصبح ملككم ... عظة الشعوب . وعبرة الأزمان
ضج النعاة . فما بكى حلفاؤكم ... أين الدموع . وكيف يبكي الجاني ؟
تبكي الطلول لكم . ويقضي حقكم ... عاوي الذئاب . وناعق الغربان
الله هد كيانكم بكتائب ... يرمي بها . فيهدُّ كلَّ كيان
لا تجزعوا للملك بعد ذهابه ... الملك لله العلي الشان

وينعي على الإنجليز غدرهم . وإيقاعهم بين الشعوب المتآخية فيقول :

جاءوا فكان من التناحر بيننا ... ما كان من عبس ومن ذبيان
لما تألبت القلوب حِيَالهم ... حشدوا لها جيشاً من الأضغان
شرعوا لنا سبل العداوة كلَّها ... حتى الفتى وإلٰهه خصمان

ثم يعرض الشاعر صوراً من ظلم الإنجليز وتسلطهم في مصر واغتصابهم أقوات الناس فيقول :

عَضّوا على أموالنا بنواجذ ... أكلت خزائن مصر والسودان
تهمي المكوس على العباد فلا يني ... صوبُ النُّضار بصوبها الهتان (١)
تجبي لسادات البلاد وبينها ... مهج الإماء . وأنفس العِبدان (٢)
القوت يسلب . واللباس . وما حوت ... دار الفقير من المتاع الفاني
المال جم في الخزائن عندهم ... والجوع يقتلنا بغير حنان

فهم قد كمموا الأفواه وسجنوا الأحرار . وجلدوهم وشردوهم . حتى خيم الحزن على أرض الكنانة :

نقموا الشَّكَاةَ على الحزين . فأمسكوا ... منا بكل فم . وكل لسان
نفضوا (الكنانة) من ذخائرها . فهل ... نفضوا جوانحها من الأحزان ؟

(١) المكوس : الضرائب ـ النضار : الذهب .
(٢) العبدان (بالكسر والضم) : جمع عبد .

غضبوا على الأحرار في أوطانهم ورضوا بكل مداهن خوان
أسر وتشريد وضرب موجع وأذى يبرح بالبريء العاني

وتتوثب عواطف الشاعر حين رأى شريف مكة يعلن الثورة على الأتراك . ويغازل لندن ويعبس للقسطنطينية . ويتحالف مع الإنجليز بعد أن خدعوه فيقول :

نبئت ما زعم (الشريف) وقومه فسمعت ما لم تسمع الأذنان
خدعوه إذ ضاق السبيل بمكرهم ورموا بآمال إليه حسان
فأباح ما منعت فوارس هاشم وحمت ولاة البيت من عدنان
يا ذا الجلالة لا سعدت بتاجه مُلْكاً . سواك به السعيد الجاني

ولقد كان محرم شديد التعلق بتركيا مخلصاً كل الإخلاص لها . وكان يعتقد أن حروبها ليست إلا دفاعاً عن الإسلام ووقوفاً في وجه أوروبا الكافرة التي تريد القضاء على المسلمين واحتلال بلادهم . وكان شعره ينبعث عن روح دينية ذاتية محضة ذلك أنه بعد أن هاجم شريف مكة لانضمامه للإنجليز وقرَّعه وأنبه . مدح الأتراك ووصفهم بأنهم حماة الدين في الشدة واللين حيث قال :

الترك جند الله لولا بأسهم لم يبق في الدنيا مقيم أذان
خلفاؤه الأبرار . نزه حبَّهم فيه . وطهرهم من الأدران
لم يخذلوه ولا أضاعوا حقه في شدة من أمرهم . وليان [١]
صانوا بحد السيف حوزة ملكهم وحِفاظ كل مشيَّع صَلتَان [٢]
يأتم فيه خليفة بخليفة ويزيد خاقان على خاقان [٣]

ويتألم الشاعر حين يرى بعض قادة البلاد الإسلامية في لهو ومجون وغفلة وكأنهم لا يتعرون بما حولهم . ولا يدركون أطماع القوى العالمية في بلادهم فيقول :

---

(١) ليان : رخاء العيش .
(٢) صلتان : الرجل الماضي المنصلت في أمره وشأنه .
(٣) خاقان : علم واسم لكل ملك خصته الترك على أنفسهم . أي ملكوه ورأسوه .

بـالمغربين ممـالك أودى بهـا ... عبث الخلائف من بني قحطان
أودى بها عبـد العزيـز وقومـه ... قـوم الخليـع وشيعـة السكـران [١]
ملك أحـاط بتـاجه وسريـره ... جيش القيان وعسكر الغلمـان
تحمي حماه بصافنات كؤوسها ... وتصونـه بصـوارم الألحـان

ثم يضرب المثل لأولئك اللاهين العابثين بنكبة الأندلس فحين عمت الفوضى تلك البلاد واجتاحها الشقاق . وسادها اللهو . فقدت وضاعت وكأن التاريخ يعيد نفسه فيقول :

عصفت بأندلس ريـاح جهـالة ... مادت لهـا الدنيـا مـن الرجفـان
صدعت قوى الإسلام بين ملوكها ... ورمت بنيـه بأبرح الأشجـان
راحوا يـديرون الشقـاق وحولهم ... عين المغير تـدور كـالثعبـان
خطب تباعد حينـه وإخـالـه ... أدنى الخطوب وأقـرب الأحيـان

ويختم الشاعر ملحمته هذه ببكاء حالة المسلمين . والتحسر عليهم فأندلس الأمس تعود اليوم كرّة أخرى فيقول :

أبكي . ورزء المسلمـين ومـا لقوا ... في العـالمين أشدُّ مـا أبكـاني
أبكي لـدامية الجوانح هـاجها ... مـا هـاجني مـن دائهـا وشجـاني
الدهر أندلس وكُلُّ ذِكْـرُهَـا ... وعهود سكـان لهـا ومغـاني

وحين يبلغ الحزن منه مبلغه يلجأ إلى الله تعالى يدعوه ويسأله الرحمة بالمسلمين والنقمة من الكافرين فيقول [٢] :

يا رب أصبحنا نخاف العـاديـا ... يا رب لا نبغي سواك واقيـاً
هيئ لنـا أمنـاً وعيشاً راضيـاً ... ولا تـرد اليوم منّـا داعيـاً
إن العـدا قـد أحدثوا الدواهيـا ... وروعـوا الآبـاء والـذراريـا
وغـادروا دينك رسماً عـافيـاً ... وزلزلـوا أعـلامه الـرواسيـا

(١) عبد العزيز : هو سلطان مراكش الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الحسن سنة ١٣١١ هـ .
(٢) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

يا رب زلزل خصمك المنـاويـا ولقـه منك الجـزاء الـوافيـا
وكن لما تخشى النفوس كافيـا

وهناك شاعر من شعراء الحجاز هو الشيخ محمد العمري غلبته الحمية الدينية . والغيرة على وحدة المسلمين فأخذ يهاجم الحسين بن علي حين أعلن الثورة على الأتراك وانضم للحلفاء . ولم يخش سطوته . وحث المسلمين على التمسك بالخلافة العثمانية فقال : [١]

حد الخلافة من يجتازه ظلمـاً ومن أباح حماها بئس ما اقتحما
ومن يـثر فتنـة عمياء ساكنـة فهو الذي هتك الإسلام والحرما

ثم مدح محافظ المدينة المنورة التركي فخري باشا . ونعته بأنه حامي الخلافة الإسلامية فقال :

أبو الفتوحات فخر الدين ناصره حامي الخلافة إن حق لهـا اهتضما
من لا يهاب الردى والموت مكتسح ولا ينـام على وتـر إذا ظلمـا

وحذر الشريف من بريطانيا وغدرها فقال في قصيدة أخرى : [٢]

فتلك ملوك الهند تنعى عروشهـا وهذه شيوخ العرب أدمعها سكب

ثم انتهت الحرب وخرجت تركيا منها بعد أن خسرت معظم أملاكها . وظهرت المعاهدات السرية التي قسمت الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ . وسقطت الآستانة دار الخلافة وغدر الإنجليز بالعرب . فأخذوا نصيب الأسد من أقطارهم . وفتحوا أبواب أولى القبلتين وثالث الحرمين أمام يهود العالم فحزن المسلمون لذلك الخطب وهالهم ما حل بهم . ولقد صور «موريسون» الشعور الإسلامي ورد الفعل عند المسلمين في إنذار وجهه إلى قومه الإنجليز حيث يقول : [٣] «لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق . فإن العالم الإسلامي أجمع ليعج غضباً . ويحتدم حنقاً

(١) لشعر الحديث في الحجاز : ص ١١٠ .
(٢) المصدر السابق : ص ١١٢ .
(٣) انظر حاضر العالم الإسلامي : جزء ١ . ص ٣٢٤ .

من جراء تجزئة تركيا . وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود ثم الصواعق المزلزلة .

إني قد أقمت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت خلالها المسلمين حق المعرفة . وأرى من الواجب علي أن أنذر أمتي البريطانية بشر عقبى هذا الثوران الإسلامي الناشئ عن تجزئة تركية .

إن سياسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الإسلامي . فليس من شعب يغضب لها . ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الإسلامية العديدة الحالَّة بين ظهرانينا في لندن كأنها اللهب لا يصطلى به . فالمسلمون قاطبة في الهند من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية وبالمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن إعوالاً شديداً . ويبكين حالة الإسلام بكاء الأمهات أطفالهن . وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً إلى حيث ينظمون برقيات الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم . وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين . المتشددين . المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن الحوادث في العالم . يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات » .

ولقد عبر الشعراء عن حزن المسلمين وألمهم فنظم حافظ إبراهيم قصيدة ندب فيها الأستانة دار الخلافة الإسلامية وقد احتلتها جيوش الحلفاء وناجى مسجدها العظيم فقال : (١)

(أيا صوفيا) حَانَ التَّفرقُ فاذْكرِي ... عهودَ كِرامٍ فِيكِ صَلوا وسَلَّمُوا
إذا عُدْتِ يوماً للصَّلِيبِ وَأَهْلِهِ ... وَحَلَّى نواحيك المسيحُ ومريمُ (٢)
ودقت نواقيس وقام مُزَمِّرٌ ... من الرومِ في محرابه يَتَرَنَّمُ
فلا تُنكِرِي عَهْدَ المآذن إنَّه ... على الله من عَهْدِ النَّواقيس أكْرَم
تباركت بيتُ القُدس جذلانُ آمن ... ولا يأمن (البيتُ العتيقُ) المُحَرَّم (٣)

(١) ديوان حافظ ابراهيم : جزء ٢ . ص ٨٨ .
(٢) يريد صورتي عيسى ومريم عليهما السلام اللتين تعلقان في الكنائس عادة .
(٣) بيت المقدس : الكنائس ـ البيت العتيق : المساجد (أي معابد النصارى في فرح وسرور ومعابد المسلمين في خوف وفزع) .

أيرضيك أن تغشى سنابكُ خيلهم حِمَاكوأنيُمنى(الحطيمُ)و(زمزم)[١]؟
وكيفَ يَذِلَّ المسلمون وبينهم كتابُكَ يُتلى كل يوم ويكرَم ؟
نبيُّك محزونٌ وبيتُك مطرقٌ حياءً وأنصارُ الحقيقةِ نُوَّم
عَصَيْنَا وخَالَفْنَا فَعَاقَبْتَ عَادِلاً وَحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُ

وهاجم الشاعر المصري محمود صادق العرب الذين خرجوا على الأتراك وأيدوا الحلفاء وحاربوا في صفوفهم فقال : [٢]

ومن عجب أن ينقض العرب عهدهم ويصبح منهم للخلافة أعداء
ألم يك منهم قبل حامي ذمارهم جدود لهم طيّ القبور وآباء

وقد سيطر الحزن على الشاعر حين رأى الحلفاء يحتلون سوريا . فصب جام غضبه على لعرب الذين ساعدوا الحلفاء وأوسعهم تأنيباً وتقريعاً فقال : [٣]

يا جيرة النيل دمعتي من فرط وجدي وحسرتي
كيف اصطباري وإن أكن أنحي عليكم بلومتي
أنتم أضعتم بلادكم ما بين جهل ونشوة

ثم بكى حالة العرب وما حل بهم من الفرقة والانقسام بعد الوحدة والاتفاق فقال :

إني لأرثي انقسامكم بعد اتفاق وألفة
إني لأبكي شتاتكم بعد اتحاد ووحدة

وللشاعر قصيدة أخرى يبكي فيها انقسام المسلمين ويشكو أساه للطائر الذي أرّقهُ السُّهد فيقول : [٤]

---

(١) يمنى : يصاب . اعتبر سقوط الأستانة في يد الإفرنج خطراً قد يمتد إلى البيت الحرام وذلك أن سقوط الدولة العثمانية سقوط لولاياتها .
(٢) ديوان صادق : ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٣٦ .
(٤) المصدر السابق : ص ١٣٨ .

فيا طير والأبصار عنك كليلة ... مداها بأشباك الظلام مقيد
لأي عراك السهد لا أنت شاعر ... فتشدو ولا أنت الحزين فتسهد
ولا لك وكر نام عنه حماته ... ولا لك روض بابه عنك موصد [1]
ولا لك سرب يجمع الحق شمله ... فأمسى شتاتاً ليس تجمعه يد
ولا لك حوض لم يذد عنه طيره ... بغاثا غدت من دونه تتردد
ولا لك ريش في الخوافي فقدته ... ولا فيك ما بين الجناحين مغمد
ولا أنت مقصوص الجناح فتغتدي ... إلى سرحة الأطيار عيَّان تجهد
ولا لك بين الدوح شرقاً ومغرباً ... مواطن لم تحرص عليها فتفقد
مواطن تزهى بالجنان وإنها ... عليها سلام الله تبر وعسجد

ثم يدعو ذلك الطائر مشاركته في الحزن والألم على ذلك الملك الضائع ، والمجد الزائل ، والشعب المشرد فيقول :

أيا طير أصدق إن تكن ثم باكيا ... وإلا فخل الدمع إن كنت تجحد
ألم تنتهل من مائنا قط جرعة ... فتحمد للأوطان ما نحن نحمد
وترثي لهذا الملك وهو مضيَّع ... وتبكي لهذا الشعب وهو مشرد
عواطف في نفسي عواصف ليتها ... تطير بأنفاسي فتهدأ أكبد
لنا الملك . لا ملكٌ . سلامٌ ورحمة ... ولله مجهود الجدود المبدَّد
سقا الغيث منهم أعظما في ترابها ... أنين لها بين السماوات مصعد
تسائلنا أين الذي من دمائنا ؟ ... سقينا وهل جئتم بنينا لتحصدوا ؟
من الهند شرقاً «للبرانس» [2] مغرباً ... لكم دوحة كانت ومجد وسؤدد
فأين تولى المجد لا مجد مثله ؟ ... وكيف استُبيح الملك واجتازه العدو؟

ولا تفوت الشاعر الإشادة بجهاد العثمانيين واستبسالهم في الدفاع عن الإسلام وما كان لهم من ماض مشرق فيقول :

---

(١) يشير إلى حالة العالم الإسلامي وقتئذ .
(٢) البرانس : جبال تقع شمال الأندلس .

ومن صيحة للترك والصبح غائم ... وأفق المنايا بالمنايا ملبَّد
(أثينا) (فينيسيا) بل (فينا) تذكري ... قليلاً فعهد الترك لا زال يعهد
يجدده التاريخ أبيضَ ناصعاً ... وذكر بني عثمان ذكر مجدد
لهم عرشهم من قوة العرش فوقهم ... فعرش بني عثمان عرش مؤيَّد
حماة بني الإسلام والبيضة التي ... أغاروا لها في العالمين وأنجدوا
وشادوا لها في المشرقين دعائماً ... فكان لها هذا البناء المشيد
لهم حرمة فينا وللدين حرمة ... قيام لها تلك الملايين سجد
نردد للذكرى وللذكر لوعة ... ترددها الأنسات فيما تردد

ويتألم الشاعر من الحقد الذي وحد الأعداء ويتضجر من الخلاف والعداء اللذين سرى بين المسلمين سريان النار في الهشيم . فضاعت الممالك الإسلامية من فينّا غرباً إلى الهند شرقاً . وأصبحت شتاتاً لا رابطة بينها فيقول :

وما ضرنا أن وحد الحقد غيرنا ... ولكن أضر المسلمين التعدد
وكانوا شعوباً يجمع الحق بينها ... فبددها يمنى ويسرى التمرد
فيا حر ملك من « فينّا » لطارق ... إلى الهند نبكيه ويبكي له الغد
أيصبح أشتاتاً فلا الشرق مشرق ... ولا الغرب إلا صاعقات وأجند؟
كتائب تزجى للمنايا كأنها ... بخار بدا من جانب اليم مصعد

ثم يشير الشاعر إلى اقتحام الحلفاء الشام دون أن يجدوا من يصدهم . ويخاطب قاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي الراقد هناك . ويشكو له حالة المسلمين . وجرائم الصيبيين . الذين انتهكوا الحمى . وعاثوا في الأرض فساداً . وهددوا عرش الخلافة الذي هو عرش المسلمين أجمع . وارتكبوا الجرائم باسم الدين . والدين منهم بريء . ويحذرهم من نقمة الله وعدله فيقول :

عليك صلاح الدين نهتاج حسرة ... على الدين والدنيا ويبكي المهند
عليك سلام الله قد كنت منجداً ... ومالك منا اليوم في الخطب منجد

لقد عاد ريكاردوس وانتهك الحمى ... وعاث الصليبيون في الملك واعتدوا [١]
وإما تراهم هددوا عرش تركيا ... لعرش جميع المسلمين المهدد
لئن نقموا للدين فالدين منهمو ... براء وعيسى والكتاب الممجد
سلام هي الأديان بر ورحمة ... وكل له منها طريق ومعبد
وإن يطمعوا في الملك فالملك ملكنا ... سماء وأنهار وأرض ومعهد
وصرح وأطلال وقبر وحرمة ... لأجدادنا فيه مقام ومولد
وإن لكم أوطانكم ثَم فارجعوا ... إليها فهذا الملك وقف مؤبد
وأنَّى لهم أن يغلبوا الله عدله ... فيطغوا وعدل الله لهو المسوَّد

ويقبل عيد الأضحى المبارك في سنة ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢١ م فينظم الشاعر قصيدته التي سماها (أحزان الشرق) وقد جاء في الديوان أن هذه القصيدة (نشرت قبيل العيد الأكبر وكانت الحالة العامة في الشرق على أسوأ ما وصلت إليه . ففي مصر كان عصر الإرهاب سائداً ومحاكم التفتيش قائمة . والزعماء مشردين .

وكانت وطأة الاحتلال في الأستانة على أشدها . والخلافة مهددة . والأناضول مضرجاً بدمائه . والفظائع على قدم وساق . أما العراق والشام وفلسطين فقد غدت خاضعة لحكم الحلفاء باسم الانتداب الذي أقرته جمعية الأمم .

وفي الهند كانت ثورة « الموبلاه » على أشدها دفاعاً عن الخلافة . والمدافع تفتك بهم فتكاً ذريعاً . وكان الشرق كله غارقاً في بحر من دمه ودموعه) [٢] فاستقبل الشاعر العيد الحزين بقوله :

عيد الضحية إما هجت آلامي ... خل الضحايا وخذ من قلبي الدامي
إنا لنلقاك لا بشر ولا فرح ... فلست يا عيد إلا عيد أيتام
لهفي على الشرق والويلات تقذفه ... في كل ساحقة من يمها الطامي
على الشعوب ذوات المجد من قدم ... أمسى يُساق بنوها سوق أنعام
من كل ذي عزة أمسى أخا ضَعَةٍ ... وكل ذي حرمة ديست بأقدام

(١) ريكاردوس : هو قائد الجيوش الصليبية أيام صلاح الدين .
(٢) ديوان صادق : ص ١٣١ .

عـدا على الشرق أقوام جبـابرة ... من كل عات شديد البطش ظلام
فبُدل الشرق واندكت معالمـه ... وأظلم الصبح فيه أي إظـلام

ثم خاطب الشاعر المسلمين عامة باسم الشرق وذكَّرهم بملكهم الذي عبث به الأعداء ، ودعاهم إلى اليقظة وذكرهم بماضيهم حين كانوا قادة الدنيا وبصّرهم بحاضرهم حيث غدوا عبيداً فقال :

بني المشارق هـذا ملككم عبثت ... به الليالي فأين العاصم الحـامي ؟
لم يبق في الصرح ركن نستظل به ... إلا أغار عليه ألف هـدام
حتى غـدا الصرح أنقاضاً مبعثرة ... ونحن نهب خرافـات وأحلام
كأنمـا الشرق لم تهبط به رسل ... ولم يكونوا ذوي وحي وإلهـام
بني المشارق هل من يقظة فـتروا ... بالعـين مصرع جهـال ونوام ؟
الدهر عـاندكم والخصم نازلكم ... فأنتمو بـين أيـام وأخصـام
وكنتمو سادة فالخلف صيركـم ... لدى الألى خدموكم بعض خدام
شتتم الشمل أم قطعتمو رحمـاً ... وأكبر الإثم عنـدي قطع أرحـام

ثم تساءل عن الوحدة الضائعة والقوة المنهارة ولام الخارجين على دولة الخلافة وتهكم وندد بأولئك الذين أحسنوا الظن في مَنْ لا يستحقونه فقال :

فأين وحدتكم بـل أين قوتكـم ؟ ... بل أين عزتكم يا خير أقوام ؟
وأين أين حمى قد كـان يمنعـه ... في سالف الدهر منكم كل ضرغام ؟
أبحتمـوه لمـن لا يستبـاح لهـم ... فكان ما كان من بغي وإجرام
أحسنتم الظن فيمن ليس يحسنه ... فيهم سوى سادر في ليل أوهـام
لقد نقمتم على أحكـام من سلفوا ... فاليوم قام عليكم شر حكـام
يا دولة العرب أين اليوم ما وعدوا ... على العراق أنبكي أم على الشام ؟

ثم يعود الشاعر كَرَّةً فيستثير الهمم ويذكر المسلمين بالجرائم والويلات التي ترتكب في فلسطين والأناضول ؛ فالدور هدمت ، والأعراض هتكت ، والشيوخ قتلت . والغيد شرِّدت فيقول :

بني المشارق مهما الدهر فرقنا ... أإخوة نحن أم أبناء أعمام ؟
كم في فلسطين ويلات مروعة ... تكاد تبدل أقواماً بأقوام
ونحن نلهو بآمال مجوفة ... هي الحماقة لو كنا بأفهام
هنا الحقائق إن شئتم مجسمة ... وإن أردتم ففيها كل إبهام
إني لأبصرها كالصبح منبلجاً ... هبت تحذرنا من رمية الرامي
تهيب بالشرق أن يستن معتزماً ... فالغرب أمضى عليه حكم إعدام
هذا (الأناضول) لو أبصرت ساحته ... شهدت أفجع ويلات وآلام
ليس الجهاد بأسياف مرهفة ... مثل الجهاد بأقوال وأقلام
هانت عليهم إذا قيست بعزتهم ... أرواحهم في سبيل المبدأ السامي
عدت عليهم عواد لم تدع لهمو ... من قوة غير إيمان وإقدام
عري وجوع وآلام مبرحة ... ونحن ما بين إرواء وإطعام
دور مهدمة غيد مشردة ... أمست ميتّمة أو ذات أيتام
النار تدفعها والخصم يصرعها ... فالغيد ما بين نيران و« أروام »
لهفي على الخدر قد أمست عقائله ... تهيم بين أخاديد وآكام
على الشيوخ وقد سالت مدامعهم ... عانوا الأمرين من عجز وإرغام
على الضعاف، على المرضى وماشفعت ... لهم تباريح أوصاب وأسقام
أفي الأناضول من ويلات أندلس ... عهد كعهد وأيام كأيام ؟

ويناشد أئمة الدين أن يهبوا لحماية الإسلام ، والخلافة التي هانت بعد المنعة . وذلت بعد العز فيقول :

أئمة الدين ما للدين ويحكمو ... أكاد أكفر لولا صدق إسلامي
لمن تركتم لواء الدين يحفظه ... وكان منكم عليه خير قوام
خلافة الله هانت بعد عزتها ... وبُدلت ذلة من بعد إكرام
فمن إباء وتقديس إلى ضعة ... إلى هوان إلى تنكيس أعلام
يا طائفين ببيت الله تكلؤكم ... عين الرضا بين تطويف وإحرام

إمّـا شكوتم إلى الرحمن ذلتنـا ... رؤُّوا طبـاق الثرى بالمدمع الهامي
لعلـه صـافح عنـا ومغتفـر ... جرماً ومبدل أحكام بـأحكام

وينشر الشاعر قصيدته التي يتوجه بها (إلى العالم الإسلامي) فيدعو المسلمين إلى العمل على استعادة ماضيهم المشرق فيقول :

بـني الإسلام والحـق المـروع ... أعيـدوا ماضي الملك المضيـع
أعيدوه فهـذا الـدين يبـقى ... وأمـا الملك قـد يبقى وينـزع

ثم يرثي بلاده الضائعة . ويتحسر على الأمجاد الغابرة . ويستثير الهمم فيقول :

بـأي عـواطف أرثي بـلادي ... وأي حـرارة وبـأي مـدمـع
أمـن نفسي ونفسي في لظـاهـا ... ومن قلبي وهـذا القلب موجع ؟
وذكرى تبعث الوجـد اشتعـالاً ... ومرٌّ في ثنـايـا النفس مـودع
وغـيرة كـل حي ذي شعـور ... لـه قلب من الآمـال مـترع
أأرضى أن أرى وطني مضـاعـاً ... وغـيري ليس بـالجوزاء يقنع ؟
وأحرم من بـلادي وهي مـنّي ... وينعم غـيرنـا فـيها ويـرتع !
أأبصر كل هـذا ليت شعـري ... ويخدعني الهوى يومـاً فأخـدع

ثم يؤكد الشاعر أن كابوس الظلم لن يطول ، ويحضُّ المسلمين على الثأر وحمايـة الأديان والأوطان فيقول :

محـال يا شبـاب الشرق هيـا ... نشد دعـائم الشرق المـزعـزع
وننزع حقنـا من كل عـات ... ونَحْمِ بقيـة الملـك المـوزع
ونمنع حرمـة الأديـان فينـا ... فإن الشرق بـالأديـان أمنـع

ثم يتوعد الغرب ويحذرهم من المسلمين فيقول :

ويـا غرب الإساءة خلِّ شرقـاً ... تجـرع مـن أذاتك مـا تجـرع
فما رضي الخضوع إليـك يومـاً ... ولكـن رغمه قد كان يخضـع

وخفْ يوماً سينهض فيه كل ... يناقشك الحساب فكيف تصنع ؟
وتلك بوادر النهضات تتلو ... وتلك سحائب الماضي تقشع

وتمر الأيام ويتولى مصطفى كمال القيادة . وتنخدع به بعض الشعوب الإسلامية . فتؤازره . ويلتحق عدد من المتطوعين بجيشه . ويشتبك الأتراك مع اليونانيين في حرب يائسة لكنها سرعان ما تحولت إلى نصر يتلوه نصر أعقبها جلاء اليونانيين عن الأناضول في أواخر سنة ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٢ م .

وقيل إن ذلك الانتصار تم بمساعدة الإنجليز . وأنهم كانوا يمهدون بذلك النصر إلى إلغاء الخلافة الإسلامية . فقد رأى الأعداء أن إلغاء الخلافة الإسلامية ليس بالأمر الهين . وأن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل لا مثيل له بين الأبطال . وإسباغ صورة فذة من صور العظمة عليه لا نظير لها عند الرجال . فهو وحده الذي يمكن أن توجه هذه الطعنة الكبرى على يديه . وأن يتلقاها المسلمون عامة والأتراك خاصة بأقل قدر من السُّخط . (١)

وفعلاً فقد طرب الشعراء لانتصار الجيوش التركية . وهللوا لذلك وكبروا وعدوه نصراً للمسلمين أجمع . فعبد المطلب يفخر بالجيش الغازي . ويستعمل ضمير المتكلم لأن انتصارهم انتصار للمسلمين جميعاً فيقول : (٢)

لقد ظنوا الظنون بنا سِفاهاً ... ورادوا البغي وانتجعوا الخيالا
كأن لم يعلموا أن المنايا ... بأيدينا نصرفها نصالا
وما يونان إن جهلت بكفء ... لنا يوم المغار ولا مثالا

وفي قصيدة أخرى يدعو الشاعر شعراء الإسلام أن يتغنوا بهذا النصر ويفرحوا به . فهذا مقامهم وهذه أسمى مناسبة لقرض شعرهم حيث يقول : (٣)

هذا مقامك شاعر الإسلام ... فقف القريض على أجل مقامِ
عادت صوارمنا إلى أغمادها ... من بعد ما ظَفِرت بخير مرامِ
هذا الحنيف يسير تحت ظلالها ... فَخْمَ الجلالة سامي الأعلام

(١) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢٧٣ . وفي الكتاب المذكور تأكيد وتفصيل وافٍ على مساعدة الإنجليز لمصطفى كمال .
(٢) ديوان عبد المطلب : ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٥٣ .

ضحك الهلال لها الغداة وربما ... أجرى مدامعه شؤون غمام
قف بالهلال على السنام من العلا ... فمكانهُ منها بكل سنام
وقف الأسنة والصوارم تحته ... ظمأى وكل مقذَّف مِرْزام

وهلل أحمد الشارف من ليبيا لهذا النصر وطرب فقال : [١]

ولما تعذر فصل القضا ... وزاد اللجاج وطال الخصام
أتى السيف بالرغم لا بالرضا ... لحسم القضية بين الأنام
فإن الحسام إذا ما انتضى ... يتزه عن شبهة الاتهام
فلا غرو إن جد يوم اللقا ... وسالت نفوس لحد الظبا
فما الشرق أوجب أن تهرقا ... ولكنما الغرب قد أوجبا

* * *

حياة على الضيم بئس الحياة ... ونعم الممات إذا لم نَفُز
وقد قام فينا كمال الصفات ... بأوفر حظ وأكمل عز

أما الشاعر المصري محمود صادق فحيا الأتراك وحن إليهم فقد حموا الدين وجمعوا الشمل فقال : [٢]

يا أيها الشعب المجيد تحية ... من مهجة تخفي الأسى وتداري
حنت إليك حنينها لبقية الـ ... ـملك الفسيح وكعبة الأمصار
ولحرمة الدين التي أنتم لها ... خير الحماة وأسبق الأنصار
بعث الإله بكم وكانت أمة الـ ... إسلام قبلُ على شفيرٍ هار
فرفعتمو منها دعائم دولة ... ثبتت كما شاء القضاء الجاري
وجمعتم الشمل الذي لم ينفرط ... إلا وباء بذلة وخسار
وأبيتم إلا اتحاد عناصر ... نكثت على عهد لها وذمار

(١) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ١٤٥ .
(٢) ديوان محمود صادق : ص ١٢٤ .

ودعـا الإله إلى التضامن بينـنا فـأجبتمو وأبوا عـلى القهـار
ندعو الألى انشقوا عليكم غيلـة للدهر فهو مهـذب الأغـرار

ثم أشاد بمصطفى كمال وافتخر به ودعاه إلى حماية عرش الخلافة وصيانته فقال :

يا مصطفى شهدت لكم أعداؤكم يكفيك مـنهم ذلـة الإقـرار
شهـدوا ومـاهم أولٌ فلطـالمـا أعيت خصومك حيلة الإنكـار
البغي رائـدهم ورائـدك الهـدى والحكم حكم الـواحد القهـار
يا مصطفى هذي تحيـة شاعـر مستبشر بك أيمـا استبشـار
فاسهر على الوطن المفدى ولتصن عرش الخلافة مـن يد الأشرار

وحين دخلت القوات التركية أزمير نظم قصيدته (ذكرى النصر الخالد) [1] وضمنها أعظم المواقف وأهم الحوادث التي تخللت هذه الحرب ، وسخر فيها من اليونانيين وأحلامهم في إنشاء إمبراطورية بيزنطية . ومدح مصطفى كمال ، وأشاد بالأتراك وترحم على الشهداء ثم تحدث عن أطماع اليونانيين وأمانيهم فقال :

تقوضت الأطماع وانهارت المنى كذلك ساءت بـالبغاة المـراتع
تفتح هـذا الحلم عن يقظة الردى فما الجنـة الفيحـاء إلا بـلاقع
فأين مغانيهم وأيـن جموعهـم ؟ مصايفهم أقوت وتلك المـرابع
وأين الذي شادوا هنـاك وطنبوا مرابض عفَّتها الوغى والوقـائع ؟
وأين دعاواهم وكيف اقتـدارهم وما لهمو في قبضة الموت شافع ؟

ثم خصَّ مصطفى كمال نصير الشرق بمدحه وإكباره فقال :

إليك نصير الشرق في حومة الوغى قلوب تحيي عهـدكم وتبـايع
أمـا ألفت بـين القلوب عواطف ودين وأوطـان وحق منـازع
وما نجمكم إلا عـلى الشرق طالع وما مجدكم إلا إلى الشرق راجـع

(١) ديوان محمود صادق : ص ١٥٤ .

وقد أطنب الشاعر في مدح مصطفى كمال ودعاه بحامي الدين . وجامع شمل المسلمين وقائد ركبهم فقال :

وإنك حامي الدين والمجد والحمى ... وحارس ذياك اللواء ورافع
وجامع شمل المشرقين وطالما ... تفرق دون الشمل من هو جامع
فيا صارخاً في الناس أن يتيقظوا ... لقد نهضت تلك الشعوب الهواجع
ويَا نَاهِضاً بالعبء أنت موفق ... فأتمم على الأوطان ما أنت شارع
فإنك للإسلام والشرق مصطفى ... فنعم الفتى الغازي ونعم المدافع

وجاء في حاشية الديوان عن دخول أزمير ما نصه : « كان [1] الأتراك على أبواب أزمير . وكان العالم بأسره في حالة شديدة من الدهش . أما الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة . فكانت الأفراح فيه قائمة على قدم وساق ، والمظاهرات تطوف البلاد في الهند والأفغان وفي مصر . وهتافها يشق عنان السماء حتى استعصى النوم على الكثيرين وكانت دموع الفرح تنهمر من عيون المخلصين ، وكان الناس يتبادلون أحر التهاني ويتعانقون في الطرقات . وكانت توزع الصدقات على الفقراء وكانت هذه المظاهر على أشدها بشكل لم يعهده التاريخ ساعة وصول الأنباء بدخول أزمير .. » .

أما الشاعر فيقول عن دخول القوات التركية أزمير :

(أأزمير) هذا اليوم أسعد ما رأت ... عيون وأشهى ما استلذت مسامع
(أأزمير) هبي عانق الشرق طالما ... لأجلك أضنته النوى والوجائع
تعالي تعالي أسعدينا فإنَّمَا ... غرامك أقوى ما احتوته أضالع
تعالي فتاة الشرق والدرة التي ... يعالجها عن مفرق الشرق نازع
تعالي تأسى عن خطوبك بعدما ... دهتك تصاريف الردى والفظائع
تعالي فداك الشرق إن جد طارئ ... ولم يبق للحوض المقدس مانع

ثم يترحم الشاعر على الشهداء . ويشيد بشجاعتهم وبطولاتهم فيقول :

سلام عليكم يا بني الشرق كلما ... تعانقت الأغصان وهي يوافع

(١) ديوان محمود صادق : ص ١٥٨ .

سلام عليكم بل سلام على الألى ... لهم بين أحناء القبور مضاجع
على شهداء الشرق والحق والهدى ... تناءت بهم تلك القفار البلاقع
تفانوا فكانوا للمواطن سلماً ... فقامت على أشلائهم تترافع
إلى الملأ الأعلى سلامي كلما ... وقفت أمام الله والقلب خاشع
سلام عليهم كلما ذرَّ كوكب ... وأومض برق واستهلت مدامع

وينظم الرصافي قصيدة يصور فيها الفرحة بانتصار جيوش الخلافة الإسلامية وقائدها مصطفى كمال فيقول : (١)

سَمِيَّ المصطفى لا زلت تعلو ... إلى أوج يطاول كلَّ أوج
فَدُرْ كالشمس في فلك المعالي ... وَحُلَّ من الكمال بكلِّ بُرْجِ
نصرت على بني يونان نصراً ... أقام الغربَ في هَرَج ومرج
وأطلع في سماء الشرق شمساً ... تفيض عليه أنوار الترجي

ثم يهزأ باليونانيين ـ ألأم الأقوام ـ وأذلهم فيقول :

هم اليونان ألأم كل قوم ... وأخوف في الوغى من فرخ قبج (٢)
أرق سجيةً منهم وأرقى ... حمير الوحش سارحة بمرج
فلا تغررك أوجههم بياضا ... فإن طباعهم كطباع زنج
وجوه قد حكين الثلج لونا ... ولكن فاتهن نقاء ثلج

ثم يشيد الشاعر بمصطفى كمال فيقول :

لتبتدر الشعوب إلى المعالي ... وتبلغ ما تريد وما ترجِّي
وتنهج منهج العمران فيما ... بها للناس من دخل وخرج
وأنت اليوم حارسها المفدى ... تحوط أمورها من كل هَرْج

(١) ديوان الرصافي : جزء ٢ ، ص ٤٣٨ .
(٢) القبج : نوع من الطير يسمى الحجل والكروان .

أما شوقي فيقرن مصطفى كمال بخالد بن الوليد في مطلع قصيدته التي نظمها إثر انتصار الأتراك على اليونانيين حيث يقول : [١]

الله أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يقرن هذا الانتصار بانتصار المسلمين يوم بدر ففي كلا الوقعتين أمد الله جنوده بالنصر . وأيدهم بالمدد فيقول :

يوم كبدر . فخيل الحق راقصة ... على الصعيد ، وخيل الله في السُّحب

ويستمر في التغني بمصطفى كمال وتصوير فرحة المسلمين بهذا النصر في مختلف الأقطار الإسلامية فيقول :

أخرجت للناس من ذل ومن فشل ... شعباً وراء العوالي غير منشعب
لما أتيت ببدر من مطالعها ... تلفت البيت في الأستار والحجب
وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة ... إلى المنورة المسكيَّة الترب
ومسَّت (الدار) أزكى طيبها وأتت ... باب الرسول فمست أشرف العتب
وأرّج الفتحُ أرجاء الحجاز وكم ... قضى الليالي لم ينعم ولم يطب
وازّينت أمهات الشرق واستبقت ... مهارج الفتح في الموشية القُشُب
هزت (دمشق) بني (أيوب) فانتبهوا ... يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو الهند والهندوس في جذل ... ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم ... وشيجة [٢] وحواها الشرق في نسب

ويعلن الشاعر سخطه على الخليفة العثماني وحيد الدين حين تناقلت الصحف إهداره دم مصطفى كمال . فشتان عنده بين الخليفة القابع في الأستانة مستكيناً ذليلاً . وبين المجاهد المظفر الذي يمضي بالمسلمين من نصر إلى نصر . فيقول في قصيدته التي استقبل بها أم لمحسنين والدة الخديوي عباس الثاني عند عودتها من الأستانة : [٣]

(١) الشوقيات : جزء ١ . ص ٤٨ ـ ٥٣ .
(٢) الوشيجة : المتصلة القرابة .
(٣) الشوقيات : جزء ١ . ص ٣٢١ .

جـــارة الإسلام في محنتـــه ... عَلِّمي الجارات مـما تعلمـين
ذَكريهنَّ (فروقاً) [١] وَصِفِـي ... طلعـةَ الخيل علـيها والسفـين
وَوَلِيَّـــا للطـواغيت بهـــا ... كـان يُدعى بـأمـير المـؤمنـين [٢]
ألـــبسَ الإسلام ذلاً وكســـا ... خلفـاء الله أثـــواب القطـــين [٣]
كان (كالصياد) [٤] في دولتـه ... دولـة الـوهم وَمُلكِ الحـالمـين
أَمْرُه في السجن غَـادٍ رائـــح ... وهو كالغـادة في القصر سجين
حمل الأعبـاء عنـه عصبـــةٌ ... مثَّلوا في الملعب المُسْتَوْزِريـــن
قـد أبـاحوا دم آساد الـثَّرى ... فازدراهم وجرى يحمي العرين

ولقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في معرض تعليقه على هذه القصيدة : [٥] « أن شوقي قال في السلطان وحيد الدين بما كان شائعاً وقتذاك ورائجاً من أنه خان أمته ومالأ الإنجليز عليها . وما أشبه ذلك من الأقاويل التي كان الكماليون يذيعونها . وكانت تنشر في الخلق وتجد هوى في نفوسهم لشدة ما عانى أهل مصر . وأهل الشرق أجمع من ظلم الإنجليز وما وقر في قلوب الناس من بغضهم .

ويوضح الأمير « أن حقيقة الحال هي أن السلطان وحيد الدين خاف الإنجليز وخشيهم بعد احتلال الآستانة فأطاعهم خوفاً لا خيانة . ولم يذهب إلى الأناضول وينضم إلى رجال الحركة الوطنية اعتقاداً بأنه إن خرج من الأستانة فلن تعود إلى المسلمين أبداً لا سيما وأن الإنجليز وغيرهم من الأجانب يتحينون الفرصة لإعادة القسطنطينية إلى الروم . وقد استغل الأتراك الثوريون هذه الفرصة فاتهموه بالخيانة والخروج على الأمة حيث كانوا يمهدون لإسقاط سلطنة آل عثمان . وإسقاط الخلافة الإسلامية . ولكنهم كانوا يخشون الشعب التركي المتمسك بآل عثمان . ويترقبون مثل هذه الفرصة لتنفير الناس منهم .

ثم يقول الأمير : إن الخليفة المظلوم أقام في إيطاليا وبها توفي بعد مدة يسيرة . وأن جثته بقيت هناك ثلاثة أسابيع حيث طالب أصحاب الدكاكين ـ الذين كانوا يبيعونه معيشته

(١) فروق : الأستانة .
(٢) يقصد السلطان وحيد الدين .
(٣) القطين : الخدم .
(٤) يشير إلى قصة خليفة الصياد في كتاب ألف ليلة وليلة .
(٥) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ١٢١ ـ ١٢٣ .

بالنسيئة ويصبرون عليه ـ تأخير الجثة حتى تُسدَّد ديونهم فبقيت الجثة هناك إلى أن جاء من سدّد الديون . وأن الرجل لو كان خائناً لأمته كما تشدق بذلك بعض الناس وخادماً لأغراض الانجليز لقام الإنجليز بنفقاته وكفوا أهله تلك الإهانة التي وقعت بإبقاء جثته رهينة تلك المدة .

ولو كان الرجل خائناً لأمته لأخذ من جواهر التاج المحفوظة بقصر الخلافة والتي تقدر بملايين الجنيهات ما يسد رمقه . ولكنه حر . والحر حرٌّ ولو مسّه الضر » .

أما الشاعر التونسي « الخزنه دار » فنظم قصيدة على غرار قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنبـاء من الكتب　　في حـده الحد بين الجد واللعب

وقد مدح الشاعر فيها مصطفى كمال . وأشار إلى أن هذا النصر نصر للمسلمين أجمع . فقد اهتزت له الممالك الإسلامية طرباً فقال : (١)

يا مصطفى المصطفى راض عليك فحز　　هذا الرضا شرفـاً يا خير منتخب
في شخصك الأمة السمحاء قد برزت　　تختال بالنصر في أثوابها القشب
واعتز شأن بني الإسلام واحتفلت　　كل الممالك واهتزت مـن الطرب
فاحلل بمكة كي تنحل عقدتهـا　　واسجد هناك لرب البيت واقترب

وأنشأ قصيدة أخرى حيا فيها مصطفى كمال الذي نهض بالإسلام . وصان حماه . وأوصاه أن يسجد لربه شكراً على هذا النصر . وأشار إلى الحسين شريف مكة الذي انضم للأعداء . وشق عصا الطاعة . ودنس البيت بالكفار . وسأل الله أن ينزل عليه غضبه . ويجازيه جزاء أبرهة حين أراد بالمسلمين السوء فقال : (٢)

بشراك جددت دين الله في زمـن　　لولاك أشبـه توراة وإنجيـلا
أسجد لربك في البيت العتيق فقد　　أفعمته اليوم تكبيرا وتهليـلا
في مهبط الوحي فاهبط يا كمال إلى　　خير الأنام وردد صوت جبريـلا
وارفع لحضرتـه أمر الحسين وقل　　هذا الشريف وحاشاكم كمـا قيلا
يا حارس الدين قد جئنا بـأبرهـة　　إليك فاستنزل الطير . الأبـابيلا

(١) ديوان الخزنة دار : جزء ١ . ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ٦٩ ـ ٧١ .

أبو رغال ليوم البعث نرجمه ... ما الأمر والفعلة الشنعاء كالأولى
أردى بأمتك الفيحا وآلمها ... ضج الحجيج ولاقى الحج تعطيلا
تُنسى الملمات إلا أزمة عرضت ... للمسلمين وزادت منه تهويلا
شق العصا علناً في وجه دولتنا ... ودنس البيت بالكفار تنكيلا

ولقد ذكر الشاعر سيطرة الكماليين على العاصمة . وفصلهم الدين عن الدولة وإعلان الجمهورية ، وانتخاب مصطفى كمال رئيساً لها . وإبقاءهم على الخلافة واستبشر بذلك شأنه شأن الكثير من المسلمين فقال :

قلت الخلافة حق المسلمين فما ... تقضي به كان مسموعاً ومقبولا
فاجعل بعيشك هذا الحق في يدكم ... حتى ترى الجمع في الإسلام مشمولا
والحكم أيضاً بجمهورية عجبت ... منه الغلاة وقد عدوه تبديلا
فاصدع بما سطر التاريخ تذكرة ... واستقصه مجملاً وافحصه تفصيلا
تجد به صوراً شتى مغايرة ... في الحكم فاعرضه معقولا ومنقولا

ويوصي مصطفى كمال بالحفاظ على الدين ، والقيام بأموره . فقد كان آباؤه الأتراك حماة للإسلام منذ القدم . وبه عزوا وسادوا ، فيقول :

نوصيك بالدين ما اسطعت القيام به ... إذ كنت عنه أمام الله مسؤولا
ما كنت تجري به الأحكام عادلة ... إليك يصبح أمر الكل موكلا
آباؤكم هم حماة الدين من قدم ... به استعزوا ونالوا منه تفضيلا
آثارهم وهي في القارات شاهدة ... تخول الحق للأبناء تخويلا
هم لن يزالوا ليوثاً في مرابضهم ... ولن يزال عرين الأسد مأهولا

ويرفع التحية من تونس الخضراء لأنقرة وقائدها الغشمشم . فقد ذكّر الشاعر بانتصارات المعتصم ، وطرب أبي تمام لها . وإنه الكمال الذي اعتز الهلال به فيقول :

تحية من بني الخضرا لأنقرة ... تحيي امرأ القيس يلقيها أكاليلا
قد أذكرتني قوافيها بمعتصم ... تحدو به نحوها الشهباء تعجيلا
والشاعر الفحل يوم الفتح ينشده ... (السيف أصدق أنباء) كما قيلا

أنت الكُمال الذي اعتز الهلال به ... قُل زادك الله إعزازا وتكميـــلا
وطَّدت ركناً تداعى للسقوط بما ... جعلتـه في سبيل الله مبـذولا

ويلوم الخليفة العثماني وحيد الدين حين أعلن إهدار دم مصطفى كمال ، ويؤكد أنه فعل ذلك بتغرير من الحاقدين الذين لم ينفعوه ، ويسترسل في مدح مصطفى كمال فيقول :

بالأمس عدك في الثوار من تركوا ... وحيدهم خـاسر الدارين مـرذولا
لو لم يغروه يا حامي خلافتـــه ... ما كان يأمل أن يلقـاك مقتـــولا
أقمت بـالعدل من ترضى خلافته ... وبات بالعدل من ناواك معزولاً
دم في الملمات كشافا متى انسدلت ... ما دام فوقك ستر الله مسـدولا
أثنت عليك الليالي وهي خاجلـة ... ولست فيهـا وأيم الله مخجـولا

وأنشأ محرم ملحمة حماسية طويلة قاربت الستمائة بيت مطلعها : (١)

رِدُوا غَمَراتِها في الواردينـــــا ... وسيروا في الممـالك فاتحينـــا

وقد أشاد فيها بمصطفى كمال وبالجيوش التركية الغازية فقال :

ومـــا ملك الهـــلال بمستبـــاح ... وإن غفت القـواضب عنـه حينا
خطوب زُلـــزلت أزمـير منهـا ... وزالت عـن مواقعهـا أثينـــا
إذا مـــا ساق قسطنطين جيشا ... رمى الغازي فساق لـــه المنونـا
ومـا بجنـود قسطنطين نـــكرٌ ... إذا كـــر الغـــزاة مكبرينـــا

ثم تهكم باليونانيين وقد ولوا مدبرين فقال :

تولوا كـالريـاح تهبُّ نكبـــا ... وطـــاروا كـــالنعام مشرَّدينـــا
تكـاد الأرض تُنكرهم إذا مـــا ... تولـوا في الأبـاطح مدبرينـا
تكـاد بـلادهـا ترتـاب فيهـم ... إذا مـروا بهن مُـدمّـرينـــا

(١) ديوان أحمد محرم : (مخطوط)

ثم تناول أعداء الخلافة . وذكرهم بوقائع غاليبولي التي انهزم الحلفاء فيها أمام القوات التركية ففال :

أفي عـرض الخلافـة وهو بسل ... تجول مطامع المتألبينـا [١] ؟
نسوا « بـالدردنيل » لهـم قبـورا ... تفيض لها دموع الـذاكرينـا
ترى الأسطول يـفزع حين يمشي ... بساحتهـا ويخشع مستكينـا
ومـا وادي الجحـيم بمستطـاع ... وإن عزبت حلوم الغافلينـا
لئن جحدوا المصـارع داميـات ... لقد شهـدت منايـا الهـالكينا
لبئس القوم كالقطعـان سيقـوا ... إليه وبئس مرعى المُصْطَلينـا

ثم أشار الشاعر إلى تعصب الأعداء وجرائمهم التي يرتكبونها باسم الصليب فقال :

رموا بـاسم الصليب فمـا أصـابوا ... ولا وجدوا الصليب لهـم مُعينـا
وما يرضى المسيحُ إذا استبـاحت ... دم الضعفـاء أيدي الآثمينـا
ولا العـذراء حـين ترى العذارى ... جـوازع ينتحـبن ويشتكينـا
رمونـا بـالتعصب فـاشهديـه ... وكـوني (حجـة المتعصبينـا)
همو جعلوا الصليب أذىً وبغيـاً ... عليـكِ صلاةُ ربـك أنصفينـا

ثم افتخر الشاعر بفوز المجاهدين . ودخولهم أزمير بقيادة مصطفى كمـال فقال :

أقـلي الهم واتئـدي فـإنـا ... سيدركنـا غيـاثُ المنجـدينـا
سما (الغازي المجاهد) في جنودٍ ... لربك مـالهم مـن غـالبينـا
وجاء الفتح أسطع مـا يُـوارَى ... وطـار الـذعـر بالمتقهقرينـا [٢]
تمـر الخيـل بـالأبطال رهواً ... وتمـضي في مواكبهـا ثبينـا [٣]
يـرددن الصَّهيـل مـبشرات ... ويتلـون « الكتـاب » مبشرينا
مشى (جبريلُ) يدعو القوم شتَّى ... فلبـوه وخـروا ساجـدينـا

(١) بسل : حرام .
(٢) وارى الشيء : أخفاه .
(٣) الرهو : السير في رفق وسهولة ـ ثبينا : جماعات .

ثم هنأ أزمير بالنصر فقال :

«رُبَا» أزمير مـاذا تنظـرينـا ... وأي عطـاء ربـك تشكـرينـا [١]
صبرت على الأذى فجزاك نصراً ... وساق إليـك عقبـي الصـابرينا
ورد عليـكِ قومكِ بعـد يـأسٍ ... فمن غـادين فيك ورائحينـا
أتوك مُسلِّمـين فمـا شجـاهم ... سوى خبب العـداة مودعينـا [٢]

ثم أشاد بالعثمانيين ، ومالهم من شجاعة وفضل وإخلاص لدين الله فقال :

بـني عثمـان مـن يضرب بسيف ... فمـا زلتم سيوف الضـاربينـا
خلقـتم للجـلاد وأرضعتكـم ... ثُـدِيُّ الأمهـات مـدربينـا
فـإن يجهل «بني عثمان» قـومٌ ... فمـا عرفوا الأُبـوة والبنينـا
أولئك أفضل الأقـوام خلقـا ... وأصدق أمـة «الفرقان» دينـا
يُحلُّون «الكتـاب» حِمَى نُفُوسٍ ... حللن من السمـاء بحيث شينـا
أهـاب بهم (رسولُ الله) هُبُّواً ... فَهَبُّوا بـالسُّيُوفِ (مُجـاهدينا)

ثم طفق الشاعر يمدح العثمانيين ، ويشيد باستبسالهم في الذود عن الخلافة فقال :

ينـادون الخلافـة لا تـراعي ... فلن نرضى لتـاجك أن يهـونا
أمـانة ربنـا صينت لدينـا ... وكنـا للأمـانـة حـافظينـا
دعوت (فأقسم الجيش اليمينا) ... وحسبك (أن يُبِيـدَ الظـالمينا)
نجاهد وحدنا ونـراه حقـاً ... وإن نكصت شعوب المسلمينا
ونحن القـوم لا نخشى المنايـا ... ولا نتهيب الحـرب الزبـونـا [٣]
لنصرك ربّنـا خضنـا المنـايا ... وفيك وفي رسولك مـا لقينـا
دعوت إلى الجهـاد ونحن صرعى ... فمـا أبت السيوف ولا عصينـا
نضج مكـبرين إذا رمينـا ... ونستبـق الجنـان إذا رمينـا

(١) أمير : مرفأ في تركية على بحر إيجة .
(٢) الخبب : ضرب من عدو الخيل . ونحوها .
(٣) حرب زبونة : شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .

وأشار محرم بألم عميق إلى المسلمين الذين ساقهم الحلفاء لقتال الأتراك . وحكى لسان حال الأتراك العاتب العاطف فقال :

نقاذف عن بني الأرحام طرًا ... ويقذفنا العِدَا ببني أبينا
ونعلم أنهم قوم ضعاف ... شقوا بالغاصبين كما شقينا
يسامون الهوان أذى وبغيا ... ويأتون الدنية صاغرينا
إذا انبعثت قذائفُهم غضبنا ... فإن بعثوا القلوبَ لنا رضينا
تبيت صفوفهم تهفو إلينا ... وإن مضت الطلائعُ تتقينا
يريدون الحياة ككل شعب ... وتقتلهم قوى المستعبدينا
أولئك قومنا اللهم فافتح ... لنا ولقومنا الفتح المبينا

ثم نعى على الإنجليز مكرهم بالخلافة . وسعيهم الدائب لتمزيق المسلمين فقال :

أرادوا بالخلافة ما أرادوا ... وردوا المسلمين ممزَّقينا
يقيمون الممالك واهيات ... يملن مع الرياح ويثنينا
يدبِّرون الضراء لنا وما هم ... وإن خدعوا الصغار بضائرينا
تكشفت الأمور لنا فلسنا ... عن السَّنَنِ السَّوِيِّ بناكبينا

ثم حيى الشاعر الخليفة الجديد عبد المجيد الذي عينه الكماليون خليفة بعد أن خلعوا الخليفة وحيد الدين ، وأعلنوا فصل الدين عن الدولة فقال :

(أمير المؤمنين) طلعت يمنا ... وكنت الخير للمتيمنينا
نطيع من الخليفة كلَّ أمرٍ ... ونعمل « للخلافة » مخلصينا
يضج المسلمون بكل أرض ... يحيون « الإمام » مبايعينا
وما عبد المجيد بذي خفاء ... ولا هو ريبةُ المتوهمينا

والشاعر يؤمن إيماناً عميقاً ، بوجوب وحدة المسلمين في ظل راية الخلافة العثمانية ؛ ولذا يتوجه إلى العثمانيين يدعوهم ويندبهم أن يهبوا لنجدة مصر فيقول :

بني عثمان أنتم إن دعونا ... ذوي الأرحام خير العاطفينا

أعينوا (مصر) إن لمصر فيكم ... رجاء تستعز به متينا
أغيثوا أهلها وتداركوهم ... ولَمَّا يذهبوا في الغابرينا
أعيدوا (النيل) سيرته وردُّوا ... إلى (استقلاله) الشعب الحزينا
أمن شَرَفِ الخلافة أن تروه ... أسيراً في الأداهم أو سجينا [1] ؟

وبعد . فخلاصة القول إن الشعراء الذين أشرنا إليهم كانوا يدعون إلى وحدة العالم لإسلامي في ظل الراية العثمانية . ويهاجمون الخارجين على دولة الخلافة الإسلامية ، ويمجدون البطولات ، ويهزأون بالحلفاء وأعوانهم ، وكانت تلك الحروب التي شنت على لدولة العثمانية عاملاً مهماً في جمع الكلمة وتوحيد الصف للشعراء وغيرهم .

وحين ظهر مصطفى كمال وتولى القيادة تعلق الشعراء به بادئ الأمر . وبالغوا في مدحه وتمجيد بطولاته . وأناطوا به آمالهم . بل اندفع العديد من الشعراء يدافع عنه حين ابتدع في الخلافة وجردها عن السلطة .

وكان هذا المدح من الشعراء قبل أن يلغي الخلافة الإسلامية ويطرد الخليفة ويعلن علمانية الدولة .

* * *

(١) الأداهم : جمع أدهم . القيود .

obeikandl.com